آلةَ السَّعَادة

أحمد حسن محمد أحمد

الفصل الأول

سفينة خفرع

كانت غرفة القيادة في سفينة الفضاء «خفرع» هي المكان الوحيد الذي يبدو متسعاً حقاً.

التلسوبات الأمامية تحتاج إلى حيز كافٍ، ومنصات المراقبة الشفافة تسمح برؤية أي ظاهرة كونية مثيرة: العمالقة الحمر، الأقزام البيضاء، الثقوب السوداء حين تتخذ النجوم أشكالاً أغرب من الخيال.

رائد الفضاء مختار زكي راجع حساباته على الكمبيوتر الضوئي للمرة الثالثة في أقل من ساعة.

بعد ثلاثة أيام سيصلون إلى مدار كوكبين جديدين. كان ينتظر تقرير التحليل الطيفي ليعرف طبيعة سطحهما وغلافهما الجوي.

استرخى في مقعده وسمع حديثاً هادئاً يدور بين مجموعة من الرواد الجالسين على منصة المراقبة القريبة.

سأل أحدهم الآخر:

ـ لماذا تطوعت في بعثة الاستكشاف هذه؟

أجاب الصوت الثاني ببطء:

ـ إنها الفرصة الحقيقية للترقية. بعد ذلك تبدأ الرحلات السهلة... المريخ أو المشترى.

ضحك رائد طويل القامة من قسم الإمداد والتموين وقال:

ـ بالنسبة لي؟ مجرد حب المغامرة واكتشاف عوالم جديدة.

مختار لم يشاركهم الحديث.

كان يعرف إجابته هو، لكنها لم تكن من النوع الذي يُقال بصوت عالٍ.

قبل سنوات، حين انطلق الأسطول الفضائي الكبير من حول كوكب الأرض، كان يبدو كسرب من الأسماك المتلألئة يغوص تحت الظل ثم يبرز فجأة في ضوء الشمس. بعد ذلك تفرقت الأساطيل الصغيرة في اتجاهات محددة مسبقاً، كل مجموعة تأخذ طريقها لاستكشاف الكون.

مختار اختار هذه البعثة لأنه أراد أن ينشر المعرفة والقدرة البشرية وحضارة الإنسان في أقصى ما تستطيع السفن الوصول إليه. فصل نفسه عن جيله، عن الارتباطات، عن العواطف التي كانت تثقله على الأرض. ظن أنه بهذا يصبح أخف... وأنقى.

لكن شيئاً ما كان يخيب أمله الآن.

شعور غامض بالضيق والتوتر يلاحقه منذ بدأت الرحلة. كل شيء يسير كما هو متوقع، تماماً كما حدث في الكواكب الأربعة السابقة في مجرة المرأة المسلسلة. في كل مرة كانوا يهبطون، يدرسون، ثم يتركون خلفهم أدوات ترفع الحضارة المحلية: تصميمات حواسيب، طاقة نووية، موصلات فائقة.

كان مثالياً.

عظيماً.

ولم يكن فيه أي خطأ.

فلماذا إذن يشعر هذا الفراغ؟

ضغط على لوحة التحكم وأ ordin النظر إلى الشاشة التي تعرض المسار المتبقي.

ثلاثة أيام.

ثم كوكبان جديدان.

وربما... شيء لم يعهده من قبل.

الفصل الثاني

الهبوط

جاء تقرير التحليل الطيفي في الساعة الثالثة حسب توقيت السفينة.

مختار راجعه بسرعة آلية أولاً، ثم أبطأ وقرأ كل سطر بعناية.

الكوكب الأول كان مجدباً، متجمداً، تجتاحه عواصف ترابية عاتية. غير صالح.

أما الكوكب الثاني... فغلافه الجوي يحتوي على نسبة أكسجين عالية، ودرجة حرارته معتدلة، وسطحه يظهر علامات واضحة لنشاط زراعي ومستوطنات.

القائد عقد اجتماعاً سريعاً في غرفة القيادة.

ـ سنهبط على الثاني. الحضارة تبدو قديمة وبدائية تكنولوجياً: طواحين هواء، سواقي مياه، حيوانات للجر والنقل، قرى ومدن مبنية بحجارة منحوتة يدوياً. ثمة شيء غريب في كل هذا... ومهما كان، فعلينا أن نكتشف السر.

هبطت السفينة «خفرع» بنجاح على سهل واسع منحدر قليلاً.

عندما فتحوا الأبواب وخرجوا، شعر مختار فوراً بنقاء الهواء. لا نفايات صناعية، لا رائحة معدنية، فقط تراب وزرع وشيء يشبه الصفاء القديم.

المدينة كانت على بعد خمسة كيلومترات. مبانيها مصممة لتأدية وظائفها فقط، خالية من أي زينة أو ديكور. وعلى مشارفها امتدت المساكن الريفية على مسافات متساوية كبقع واضحة في السهل حتى الأفق.

مرّ مختار بأحد الحقول. فلاح محلي كان يحصد محصولاً ما ويضعه في كوم. بجانبه صغيران يلهوان. لم يلتفت أي منهم إلى الزي الفضائي الفضي الذي يرتديه مختار، رغم الاختلاف الصارخ عن ملابسهم الملونة الفضفاضة.

كان هذا غريباً آخر.

في اليوم التالي اختير مختار للعمل كمترجم.

تحت تأثير التنويم المغناطيسي نُقلت إليه لغة الكوكب. لغة واحدة فقط في الكوكب كله... وهذا بحد ذاته أمر نادر.

السكان كانوا قروداً شبيهة بالإنسان، أقصر قامة، جلدهم زيتوني، عيونهم كبيرة وجميلة، وليس لهم شعر. شكلهم مقبول، وفي بعض الحالات جميل فعلاً.

وقف مختار على السجادة الوبرية السميكة في مركز قيادة السفينة بينما كان القائد يعيد التعليمات:

ـ إن الأمر متوقف عليكم لاكتشاف هذا السر. كونوا حذرين. لا تنقلوا أي تقنية متقدمة قبل أن نفهم طبيعة هذه الحضارة تماماً.

مختار أومأ برأسه.

لكنه كان يشعر أن السر أكبر مما يتصور أي منهم.

الفصل الثالث

مورا

في اليوم الرابع فوق الكوكب، بينما كان مختار يسير مع مجموعة من المترجمين نحو المدينة، توقفت فجأة فتاة محلية أمامه.

كانت أقصر منه بقليل، بشرتها زيتونية ناعمة، وعيناها كبيرتان لونهما أقرب إلى العسل الداكن، وليس لها شعر كبقية قومها. ارتدت ثوباً فضفاضاً بلون أخضر باهت، ووقفت تنظر إليه بثبات هادئ دون خوف أو دهشة مفرطة.

قالت بصوت واضح وهادئ، بلغتها التي صار يفهمها تماماً:

ـ أنت من الذين جاءوا من السماء.

لم تكن جملة استفهامية. كانت تأكيداً.

أومأ مختار.

ـ اسمي مختار زكي.

ابتسمت ابتسامة صغيرة مائلة، وقالت:

ـ أنا مورا.

منذ تلك اللحظة صارت ترافقه في جولاته. لم يطلب منها أحد ذلك، ولم يطلب هو، لكنها كانت تظهر في الصباح بجانب مدخل السفينة أو عند أول طريق يؤدي إلى المدينة، وتمشي إلى جانبه بصمت أولاً، ثم تبدأ بالحديث تدريجياً.

كانت تجيبه عن أسئلته بصراحة غريبة. تشرح له كيف يعملون الحقول، كيف يبنون بيوتهم الحجرية، كيف يعيشون بلا آلات معقدة. وفي الوقت نفسه كانت تسأله هي أيضاً: عن لون سمائهم في أرضه، عن عدد النجوم التي يعرفها، عن سبب ارتدائهم هذه الملابس اللامعة الضيقة.

بعد أربعة أيام بدأ مختار يميز وجوه السكان عن بعضهم. وفي اليوم الخامس أدرك أنه يبحث عن وجه مورا بين الجموع قبل أن يبحث عن أي شيء آخر.

في مساء ذلك اليوم، بينما كانا يجلسان على حافة تل صغير يطل على السهل، قالت مورا فجأة:

ـ أنت مختلف عن الباقين الذين معك.

التفت إليها.

ـ كيف؟

ـ عيناك... تنظران إلى الأشياء وكأنك تبحث عن شيء ضائع. والآخرون ينظرون وكأنهم يقيسون فقط.

مختار لم يجب فوراً.

شعر بشيء دافئ وهادئ ينتشر في صدره، لم يشعر بمثله منذ سنوات طويلة على الأرض أو في السفن.

مدّت مورا يدها ووضعتهما على العشب بينه وبينها، قريبة جداً من يده.

لم تلمسها، لكنها تركتها هناك.

وقال مختار في نفسه، وهو يحدق في الأفق البعيد:

هذا الكوكب... مختلف.

وهي أيضاً.

الفصل الرابع

المتحف الفضائي

في صباح اليوم السادس مشى مختار مع مورا عبر الميدان الرئيسي للمدينة.

في الركن المقابل ظهر مبنى كبير من الحجر المصقول، واجهته بسيطة بلا زخارف، وفوق بابه لوحة مكتوبة باللغة المحلية: «المتحف الفضائي».

كالعادة كان هناك حشد ثابت من الأهالي يدخلون ويخرجون.

توقف مختار فجأة ونظر إليهم بتمعن.

كانت هناك مجموعتان واضحتان.

الذين يخرجون من المتحف يبدو على وجوههم نوع غريب من الرضا العميق، كأنهم عادوا من مكان أعاد إليهم شيئاً ثميناً فقدوه. أما وجوه الذين يدخلون فلم يكن فيها سوى الترقب الهادئ... انتظار شيء يعرفونه جيداً.

استدار فوجد مورا تلاحظه بهدوء.

قال لها:

ـ أريد أن أشاهد المتحف الفضائي.

هزت رأسها موافقة دون كلمة، ومدت يدها إليه. أمسكها. كانت راحة يدها دافئة وجافة.

دخلا مع الموكب البطيء.

في الداخل كانت الأرفف الخشبية مصطفة على الجانبين، وعليها أدوات معطوبة وبالية: أجزاء معدنية صدئة، تروس مكسورة، ألواح سوداء متشققة. السكان يتحركون في مسار بطيء لا مبالٍ أمامها، يتوقفون أحياناً بينما تشرح مورا لمختار بصوت خفيض كيفية استخدام هذه الأداة أو تلك في زمن بعيد.

انتقلوا من رواق إلى آخر. لا شيء غير عادي. الزيارة تبدو مضيعة للوقت... إلى أن وصلوا إلى الطابق الأخير.

هناك، في نهاية الرواق، قام تمثال ذهبي هائل.

لم يكن ممكناً النظر إليه مباشرة؛ العينان لا تقويان على بريقه. خلف التمثال مباشرة ارتفعت قبة ذهبية ضخمة، ومن خلفها ظهر شيء آخر... آلة؟ أم كتلة بلورية هائلة تدور بحركة خفيفة متصلة كدوامات الماء؟

مختار شعر بإحساس غامض يضغط على صدره.

مورا ضغطت على يده بلطف وقادته إلى الأمام مع الجموع.

اندفع الركب الوطني من خلال القبة الذهبية... وهناك غابوا عن العين، كأنهم تلاشوا داخل الآلة الغريبة.

مورا رفعت وجهها إليه وقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ هل تريد أن ترى... حقاً؟

مختار نظر إلى القبة الذهبية الدوارة، ثم إلى عينيها العسليتين، وأجاب دون تردد:

ـ نعم.

الفصل الخامس

القبة الذهبية

مرّوا عبر القبة الذهبية.

في اللحظة التي خطا فيها مختار الخطوة الأخيرة، شعر بهالة من الدفء الشديد تحيط به من كل جانب. أغمض عينيه غريزياً... وعندما فتحهما كان في مكان آخر تماماً.

لم يكن الفرق جغرافياً فقط.

كان اختلافاً في النوع نفسه.

كل شيء حوله يهتز ويتحرك حركة مائلة ناعمة. زهور مضيئة رائعة تتناثر هنا وهناك، وبلورات عملاقة نابضة تحت قدميه. الهواء نفسه كان خفيفاً وعاصفاً في آنٍ واحد، مليئاً بموسيقى لا تشبه أي موسيقى سمعها على الأرض أو في السفن... فيضان هائل من الألحان التي تبدو وكأن الكون كله يرددها.

نظر إلى جواره.

مورا كانت هناك... وقد تحولت هي أيضاً.

جسدها صار مضيئاً، رشيقاً، قوياً، كأن الضوء ينبع من داخل جلدها الزيتوني. عيناها تلمعان بشدة أكبر، وابتسامة هادئة وعميقة على وجهها.

لمست ذراعه.

وبمجرد أن لمسته سبحا معاً في الهواء.

لم يعودا يحتاجان إلى الأرض. الجاذبية صارت اختياراً لا قانوناً. حلّقا وسط حشود ضخمة من الكائنات المضيئة التي تتمايل في رقصات جماعية معقدة، إيقاعاتها قريبة إلى حد كبير من فهمه، لكنها أعمق. عواطف نبيلة تفيض من كل صدر: حب، صدق، معرفة، تضحية، صداقة، سعادة... وأصبح الزمن لا يعني شيئاً.

مختار شعر بجسده يتحول هو الآخر إلى مخلوق مضيء رشيق. القوة تملأ عضلاته، والوضوح يملأ رأسه. لكنه كان يشعر بشيء أقوى من كل ذلك: يد مورا في يده، ووجودها قريباً منه بهذا الشكل الجديد، كأنهما صارا جزءاً من اللحن نفسه.

راقسا معاً في الهواء.

جسداها يقتربان ويبعدان في حركة دائرية بطيئة ثم سريعة. في لحظة معينة التصق صدره بصدرها، وشعرا معاً بنبض واحد ينتقل بينهما عبر الجلد المضيء. لم يكن جنساً بعد... لكنه كان أقرب شيء إليه: اتحاد كامل بلا حواجز، سعادة جسدية وروحية في الوقت ذاته.

كم من الوقت مرّ هناك؟

لم يدرِ.

فجأة أحس بذبذبة خفيفة، ثم بشعور السقوط الحر تحت تأثير وزنه الذاتي. صاح من الارتباك، فربتت مورا على ذراعه بقوة لتعيده.

فتح عينيه.

كانا مرة أخرى في الرواق الحجري العادي داخل المتحف. الضوء يأتي من نوافذ عالية لا تبين شيئاً من العالم الخارجي. الجموع تتحرك ببطء نحو السلالم المؤدية إلى الأسفل.

مورا كانت لا تزال تمسك بيده.

نظرت إليه وقالت بصوت هامس ممتلئ بسعادة غامرة:

ـ الآن... لقد اكتشفت مكان آلة السعادة.

مختار لم يستطع الكلام فوراً.

كان لا يزال يشعر بالموسيقى تحت جلده، وبدفء جسدها المضيء الذي لم يعد مضيئاً، لكنه بقي قريباً جداً.

الفصل السادس

العودة

خرجوا من القبة الذهبية كما دخلوا: في موكب بطيء صامت.

لكن مختار لم يعد هو نفسه الذي دخل.

العالم الحجري العادي للمتحف بدا فجأة ضيقاً وباهتاً. الضوء القادم من النوافذ العالية كان باهتاً مقارنةً بذلك الفيضان الذي غمره قبل لحظات. الأرض صلبة تحت قدميه، والجاذبية ثقيلة، والهواء عادي لا يحمل موسيقى. كل شيء عاد إلى حجمه الطبيعي... إلا الإحساس.

كان لا يزال يشعر بالموسيقى تحت جلده.

نبضة خفيفة منتظمة في عمق صدره، كأنها بقيت هناك بعد أن انطفأ الضوء.

مورا كانت تمشي إلى جانبه، يدها لا تزال في يده. لم تفلتها منذ خرجا. أصابعها الدافئة ملتفة حول أصابعه بثبات هادئ، كأن هذه اللمسة هي الجسر الوحيد الذي يربطه بما حدث داخل الآلة.

لم يتكلم أحد منهما طوال نزولهما السلالم والمرور عبر الأروقة. السكان الآخرون كانوا يتحركون كالعادة، وجوههم تحمل ذلك الرضا العميق المألوف، ثم يتفرقون في الميدان كأن شيئاً مقدساً لم يحدث.

عندما خرجا إلى ضوء النهار، توقف مختار لحظة.

رفع وجهه إلى السماء الباهتة الزرقة، ثم أنزل بصره إلى وجه مورا.

كانت تنظر إليه هي أيضاً.

عيناها العسليتان لم تعد لامعتين بالضوء الداخلي، لكن فيهما شيئاً جديداً... هدوءاً عميقاً، وشيئاً يشبه الامتنان، وشيئاً آخر لم يجرؤ بعد على تسميته.

ضغطت على يده قليلاً، ثم قالت بصوت خفيض جداً:

ـ الآن تعرف.

أومأ برأسه.

لم يستطع أن يقول أكثر. الكلمات بدت فجأة ثقيلة وناقصة.

سارا معاً بعيداً عن الميدان، نحو التل الصغير الذي جلسا عليه قبل أيام. لم يتفقا على الذهاب إلى هناك، لكن خطواتهما أخذتهما تلقائياً. طوال الطريق بقيت يداهما ممسكتين. لم يتكلما. كانت اللمسة كافية. أصابعها تنزلق أحياناً بين أصابعه ثم تعود لتتشابك من جديد، في صمت طويل ممتد كأن الزمن نفسه صار أبطأ خارج الآلة مما كان داخلها.

عندما وصلا إلى قمة التل، جلسا على العشب.

مورا لم تبعد يدها. تركتها في يده، ووضع رأسها برفق على كتفه. شعر بوزن رأسها الخفيف، وبرائحة جلدها النظيفة القريبة من التراب والزرع.

مختار أغمض عينيه لحظة.

تذكر التحول. تذكر كيف صار جسده مضيئاً، وكيف سبحا معاً في الهواء، وكيف التصق صدره بصدرها في تلك الرقصة البطيئة وشعرا بنبض واحد. تذكر السعادة التي لم تكن مجرد شعور... بل حالة كاملة من الوجود.

وفجأة أدرك شيئاً آخر:

أنه لم يعد يريد أن يغادر هذا الكوكب.

الترقية، التقرير العلمي، العودة إلى الأسطول، نشر الحضارة الأرضية... كل تلك الأشياء التي كانت تملأ رأسه قبل الهبوط بدت الآن بعيدة وباهتة، كأصوات قادمة من غرفة أخرى.

ضغط على يد مورا برفق، فرفعت رأسها ونظرت إليه.

قال بصوت أجش، كأنه يتحدث لأول مرة منذ ساعات:

- هذا... لم يحدث لي من قبل.

ابتسمت ابتسامة صغيرة هادئة، وقالت:

- ولا لي.

رغم أنني دخلت مرات كثيرة... هذه المرة كانت مختلفة.

سكتت لحظة، ثم أضافت وهمسها يلامس أذنه تقريباً:

ـ لأنك كنت معي.

مختار شعر بالدفء ينتشر من نقطة تلامس كتفه برأسها إلى كل جسده.

أدار رأسه قليلاً حتى صارت جبهته قريبة من جبهتها. لم يقبلها بعد. اكتفى بأن يرفع يده الحرة ويلمس بظهر أصابعه خدها الزيتوني الناعم، ببطء شديد، كمن يخشى أن ينكسر الشيء الثمين إن لمسه بقوة.

بقيت هي ساكنة تحت لمسته، عيناها مفتوحتان تنظران في عينيه.

وبقيت يداهما متشابكتين على العشب بينهما،

في صمت طويل

مليء بكل ما لم يعد يحتاجان إلى قوله.

الفصل السابع

الاعتراف

حلّ الليل فوق السهل ببطء، كأن الضوء نفسه يتردد في الرحيل.

مختار وموروا لم يعودا إلى المدينة ولا إلى السفينة. بقيا على التل حتى غابت الشمس تماماً، ثم نزلا في الظلام الناعم نحو كوخ صغير مهجور على حافة الحقول، كانت موروا تعرفه منذ الصغر.

أوقفت مصباحاً زيتياً قديماً على الأرض الترابية، فانتشر ضوء أصفر خافت رسم ظليهما على الجدار الحجري. جلسا متقابلين أولاً، ثم اقتربت هي حتى صارت ركبتها تلامس ركبته.

سكتا وقتاً طويلاً.

الريح كانت خفيفة خارج الكوخ، تحمل رائحة تراب مبلل وزرع. وفي الداخل لم يكن هناك إلا صوت تنفسهما وصوت المصباح حين يفرقع الزيت قليلاً.

أخيراً رفعت مورا وجهها وقالت بصوت هادئ، لكنه كان يحمل ثقلاً لم يسمعه مختار منها من قبل:

ـ يجب أن تعرف الحقيقة كاملة.

انتظر.

ـ آلة السعادة... ليست مجرد مكان نذهب إليه لنرتاح. هي الشيء الذي يحفظنا. منذ زمن بعيد جداً، أبعد مما يتذكره أحد، وجدها أجدادنا أو بُنيت... لا أحد يعرف بالضبط. لكنها أصبحت جزءاً من حياتنا. ندخلها حين يثقل علينا البؤس، فنخرج قادرين على احتمال الأيام التالية. بدونها... لن نستطيع الاستمرار كما نحن.

صمتت لحظة، ثم تابعت وهي تنظر إلى يديه:

ـ منذ هبطتم أنتم... بدأ شيء يتغير. الآلة تشعر بكم. أنتم أكثر حساسية، أكثر امتلاءً بالذكريات والصور والأفكار المعقدة. حين دخلتَ معها اليوم، شعرتُ أن شيئاً داخلها... ارتعش. كأن باباً قديماً فُتح فجأة على عالم لم تكن مستعدة له.

مختار شعر ببرودة خفيفة تسري في ظهره.

ـ تقصدين أنها تتصدع؟

أومأت.

ـ نعم. شقوق صغيرة في البداية، لا يراها إلا من اعتاد الدخول. لكنها تتسع. وكلما دخل أحدكم، أو اقترب أكثر، زاد التصدع. إذا عرف قومك السر، إذا جاؤوا بأعداد، إذا حاولوا فهمها أو نقلها أو استغلالها... قد تختفي إلى الأبد. ونحن... سنبقى وحدنا مع الحياة القاسية التي تعرفها الآن، بلا مهرب.

صوتها كان هادئاً، لكنه كان يرتعش في نهايته قليلاً.

مختار مدّ يده وأمسك يدها بكلتا يديه. شعر بأصابعها باردة هذه المرة.

ـ لماذا أخبرتني؟

نظرت إليه طويلاً قبل أن تجيب:

ـ لأنك مختلف. ولأنني شعرتُ داخل الآلة أنك... لن تؤذينا. ولأنني لا أستطيع أن أحمل هذا السر وحدي بعد اليوم الذي عشناه معاً.

اقتربت أكثر. وضعت جبهتها على جبهته، وبقيت هكذا برهة صامتة، يتنفس كل منهما هواء الآخر.

ثم قالت همساً، والصوت يهتز هذه المرة بوضوح:

ـ أنا خائفة يا مختار. خائفة على الآلة، وخائفة عليك، وخائفة من اليوم الذي ستضطر فيه إلى الاختيار بين قومك وبيني.

رفع يده وأمسك وجهها بلطف، إبهاماه يلامسان خديها.

ـ لن أخبر أحداً. هذا وعد.

ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة، ثم أغلقت عينيها وتركت رأسها ينزلق حتى استقر على كتفه. لفّ ذراعه حولها وسحبها إليه برفق حتى صارت جالسة بين ذراعيه، ظهرها إلى صدره، رأسها تحت ذقنه.

جلسا هكذا وقتاً طويلاً في ضوء المصباح الأصفر.

هو يمرر أصابعه ببطء في شعرها القصير الناعم (رغم أنه لم يكن شعراً بالمعنى الأرضي، بل زغباً ناعماً جداً يغطي رأسها)، وهي تمسك بمعصمه بكلتا يديها كمن يتمسك بشيء يمنعها من السقوط.

في الخارج كان الليل عميقاً وساكناً.

وفي الداخل كان الاعتراف قد وقع،

والخوف قد صار مشتركاً،

والقرب الجسدي قد صار أعمق من أي كلام.

مختار قبّل أعلى رأسها قبلة طويلة صامتة، وأغلق عينيه.

كان يعرف أن هذا الوعد سيكلفه الكثير.

وكان يعرف أيضاً أنه لن يستطيع التراجع عنه.

الفصل الثامن

القرار الأول

استيقظ مختار قبل الفجر بقليل.

الضوء الرمادي الخافت كان يتسلل من الشقوق الضيقة في جدار الكوخ الحجري. مورا لا تزال نائمة بين ذراعيه، رأسها على صدره، ويدها ملقاة على بطنه في استرخاء تام.

لم يتحرك.

بقي يحدق في السقف المنخفض ويستمع إلى تنفسها الهادئ المنتظم. كان القرار قد اتخذ في داخله أثناء الليل، بهدوء وبلا ضجيج، كشيء ناضج من تلقاء نفسه.

لن يكتب حرفاً واحداً عن الآلة في تقريره.

لن يذكر القبة الذهبية، ولا التحول، ولا الموسيقى، ولا السعادة التي غمرته. سيصف الحضارة كما تبدو من الخارج: بدائية، زراعية، هادئة، بلا تقنيات متقدمة تستحق الاهتمام الفوري. وسيوصي بمواصلة المراقبة الحذرة دون تدخل سريع.

هذا كل شيء.

عرف أن الكذبة ستلاحقه. عرف أن القائد قد يشك في يوم من الأيام، وأن أحد أفراد الطاقم قد يلاحظ التغيرات إن تسارعت. لكن في تلك اللحظة، وهو يشعر بوزن جسد مورا الدافئ عليه، لم يكن أي من ذلك مهماً.

حرّك أصابعه برفق في شعرها القصير. استيقظت ببطء، فتحت عينيها، ونظرت إليه دون أن ترفع رأسها بعد.

ابتسمت ابتسامة صغيرة نعسانة وقالت بصوت مبحوح من النوم:

ـ فكرت كثيراً أثناء الليل؟

ـ نعم.

ـ وقررت؟

ـ نعم.

لم يحتج إلى أن يشرح. فهمت من نظرته ومن الطريقة التي يمسك بها كتفها.

رفعت رأسها قليلاً حتى صارت وجهاً لوجه معه. الضوء الرمادي كان يرسم ملامحها بوضوح هادئ: العيون العسلية الكبيرة، الخط الناعم للشفاه، البشرة الزيتونية التي تبدو أكثر دفئاً في هذا النور الشاحب.

سكتا لحظة.

ثم مال هو نحوها ببطء شديد، كمن يقترب من شيء مقدس يخاف أن يفسده إن أسرع.

لمست شفتاه شفتيها أولاً لمسة خفيفة جداً، كاختبار.

بقيت هي ساكنة، ثم ردّت اللمسة بضغط أعمق قليلاً.

كانت القبلة هادئة في بدايتها، طويلة، بلا عجلة. شفتاه تتحركان على شفتيها ببطء، يكتشفان الشكل والدفء والطعم الخفيف للتراب النظيف والهواء الصباحي. يده انزلقت إلى خلف رأسها وسندتها، بينما يداها أمسكتا بكتفيه ثم صعدتا إلى رقبته.

تعمقت القبلة تدريجياً دون أن تفقد هدوئها. صارت أطول، أدفأ، أكثر امتلاءً. تنفسها اختلط بتنفسه. شعر بلسانها يلامس لسانه للحظة قصيرة ثم ينسحب، فعاد هو ليطلب المزيد برفق. استجابت. طال الوقت. صار الجسد كله مشاركاً في القبلة: صدره يضغط على صدرها، ركبتاه تتشابكان مع ركبتيها، ويده الحرة تنزلق على ظهرها فوق القماش الرقيق.

عندما انفصلا أخيراً، بقيت جباههما متلامسة، وأنفاسهما سريعة قليلاً.

همست مورا وعيناها لا تزالان مغلقتين:

ـ هذا أيضاً... لم يحدث لي من قبل.

ابتسم مختار ابتسامة صغيرة وتعبة من السعادة، وقبّل زاوية فمها مرة أخرى قبلة قصيرة، ثم أخرى على جبينها.

قال بصوت خفيض جداً:

ـ لن يعرف أحد. هذا وعد ثانٍ.

ففتحت عينيها ونظرت إليه طويلاً، ثم وضعت رأسها من جديد على صدره، ويداها تلتفان حول جسده كمن يرفض أن يدع المسافة تعود بينهما.

خارج الكوخ كان الفجر يكتمل ببطء.

الطيور بدأت أصواتها الخافتة الأولى.

والحقول كانت تستيقظ على يوم جديد

لا يعرف أحد فيه بعد أن سرّاً كبيراً قد كُتم،

وأن قبلة طويلة هادئة قد غيّرت مسار كل شيء.

الفصل التاسع

الشرارة

مرّت ثلاثة أيام على خروجهما من الآلة.

مختار كان يذهب كل صباح إلى السفينة ليقدّم تقاريره العادية عن حالة الجو والتربة والنشاط الزراعي، ثم يعود في الظهيرة إلى مورا. كانا يقضيان معظم الوقت في الحقول أو على التل أو داخل الكوخ الحجري. القبلات صارت أطول وأكثر تكراراً، واللمسات أكثر جرأة قليلاً، لكنهما لم يتجاوزا بعد حدود الاستكشاف الهادئ.

في صباح اليوم الرابع، بينما كانا جالسين على حافة حقل محصود، بدأت مورا تلعب بالتراب الجاف بين أصابعها كعادتها. فجأة توقفت. حدقت في التراب كأنها ترى شيئاً غير مرئي، ثم مرّرت إصبعها ببطء ورسمت خطاً منحنياً.

ثم آخر.

ثم ثالثاً.

مختار راقبها بصمت.

الخطوط صارت بعد لحظات وجهاً واضحاً: جبهة عريضة، عينان لوزيتان مائلتان قليلاً، أنف مستقيم، ذقن حاد، ولحية مستعارة مجدولة. وجه فرعوني كامل، كأن تمثالاً قديماً من وادي الملوك قد انطبع فجأة على تراب هذا الكوكب البعيد.

رفعت مورا رأسها ونظرت إليه بدهشة حقيقية.

ـ لم أرَ هذا من قبل... قط.

مدّت يدها مرة أخرى ورسمت إلى جانب الوجه عموداً رفيعاً ذا تاج مزخرف بأوراق، ثم قوساً نصف دائري يشبه الأقواس الرومانية، ثم شكلاً معقداً يشبه الزخارف الهندية الدقيقة.

كانت يدها تتحرك بثقة غريبة، كأنها تتذكر لا كأنها تبتكر.

مختار شعر بقشعريرة باردة تسري في ذراعيه.

ـ مورا... من أين جاءك هذا؟

هزت رأسها ببطء، عيناها لا تزالان على الرسوم.

ـ لا أعرف. فجأة... رأيتها داخل رأسي. واضحة جداً. كأنها كانت هناك دائماً وتنتظر أن أخرجها.

نهضت فجأة وركضت نحو مجرى ماء قريب. عادت بعد دقائق ويداهما مليئتان بالطين الرطب الداكن. جلست على ركبتيها وبدأت تشكل كتلة الطين بأصابعها بسرعة ودقة مذهلتين.

خلال أقل من نصف ساعة كان أمامهما تمثال صغير لا يتجاوز طول الكف: رجل جالس متربع، يدان على الركبتين، رأس مغطى بغطاء فرعوني، ووجه هادئ متجهم يحمل ملامح ملكية واضحة.

وضعته على التراب ونظرت إليه طويلاً، ثم رفعت بصرها إلى مختار. كان صوتها مرتعشاً هذه المرة:

ـ هذا... من عالمك؟

أومأ مختار ببطء، حلقه جاف.

ـ شيء قريب منه... نعم. من حضارة قديمة جداً على أرضنا.

صمتت مورا برهة، ثم همست كمن يخاف من كلماته نفسها:

ـ الآلة... أعطتني هذا حين كنتَ معي.

مختار مدّ يده ولامس التمثال الصغير بحذر. الطين لا يزال رطباً تحت أصابعه. ثم رفع نظره إلى وجه مورا ورأى فيها مزيجاً من الدهشة والخوف والفرح الخافت.

أمسكت يده المتسخة بالطين وقالت بصوت خفيض جداً:

ـ أشعر أن المزيد قادم... أشياء كثيرة. لوحات، مبانٍ، آلات... وأفكار لم أعرفها من قبل.

ضغط على يدها.

ـ هل يؤلمك؟

هزت رأسها.

ـ لا. لكنه... غريب. كأنها أبواب تُفتح داخل رأسي واحداً بعد الآخر.

جلسا ينظران إلى الوجه الفرعوني المرسوم على التراب والتمثال الصغير الذي يجف تحت الشمس.
الريح حرّكت الغبار حولهما برفق،
وفي تلك اللحظة عرف مختار أن السر الذي قرر كتمانه
صار أكبر وأخطر مما تصور،

وأن الشرارة الأولى للنهضة

قد اشتعلت للتو بين أصابع الفتاة التي يحبها.

الفصل العاشر

الموهبة الجماعية

خلال الأسبوع التالي لم تعد الشرارة فردية.

في الصباح الثاني بعد ظهور التمثال الفرعوني الصغير، جاءت ثلاث فتيات وشابّان من القرية المجاورة ووقفوا أمام الكوخ. كانوا ممن دخلوا الآلة في اليوم نفسه الذي دخل فيه مختار وموراء أو في اليوم الذي يليه مباشرة. نظروا إلى الرسوم على التراب والتمثال المجفف، ثم جلسوا دون كلام وبدأوا يعملون.

إحدى الفتيات أخذت قطعة فحم من موقد بارد ورسمت على لوح خشبي ملس وجهاً امرأة بملامح ناعمة وشعر منسدل وأثواب مزخرفة بأسلوب يشبه لوحات عصر النهضة.

شاب آخر شكل من الطين تمثالاً لرجل واقف بوضعية رومانية كلاسيكية، عضلاته محددة، ويده مرفوعة في إشارة خطابية.

فتاة ثالثة رسمت على جدار الكوخ الخارجي قوساً صينياً معقداً بخطوط دقيقة متداخلة، ثم أضافت إلى جانبه زهرة لوتس هندية متفتحة.

موراء كانت تراقبهم أولاً بدهشة، ثم انضمت إليهم. يداها تتحركان بثقة أكبر كل ساعة. صنعت تمثالاً لأسد بابلي مجنح، ثم رأساً لبوذا هادئاً مغلق العينين، ثم عموداً كورنثياً صغيراً مزخرفاً بأوراق الأكانثوس.

مختار جلس بينهم معظم الوقت. لم يكن يرسم ولا ينحت، لكنه كان يراقب، ويسأل أحياناً، ويمسك بيد موراء حين تتوقف لحظة لتمسح العرق عن جبينها. كانوا يقضون ساعات طويلة تحت الشمس أو في ظل الأشجار القريبة، والرسوم والتماثيل الصغيرة تتزايد حولهم كحديقة غريبة نبتت فجأة من تراب الكوكب.

في اليوم الخامس صار المكان يشبه مشغلاً مفتوحاً. سكان آخرون يمرون ويتوقفون وينظرون بدهشة صامتة، وبعضهم يجلس على مسافة ويراقب لساعات. لم يفهموا بعد ما يحدث، لكنهم شعروا أن شيئاً مقدساً وجديداً يولد أمام أعينهم.

في إحدى الأمسيات، بينما كان الضوء الذهبي الأخير يغمر الحقل، جلس مختار وموراء وحدهما وسط التماثيل الصغيرة والألواح المرسومة. هي تتكئ على كتفه، وهو يمرر إصبعه ببطء على سطح تمثال فرعوني جفّ تماماً.

قالت بصوت هادئ متعب من السعادة:

ـ كلهم يرون الأشياء نفسها التي رأيتها أنا. كأن الآلة فتحت الباب نفسه لنا جميعاً... لأنك كنت معنا.

نظر مختار إلى الصف الصغير من التماثيل: الفرعوني، الروماني، البابلي، الهندي، الصيني، ثم إلى اللوحات التي تحمل وجوه نساء ورجال بملابس لم يعرفها أهل هذا الكوكب من قبل.

همس:

ـ هذا أكبر من سرّ. هذا... بداية شيء لا أعرف إلى أين سيمضي.

أمسكت مورا يده ووضعتها على خدها، ثم قالت وهي تنظر إلى الأفق الذي بدأت فيه النجوم تظهر:

ـ أنا لا أخاف منه. أخاف فقط أن يتسارع أكثر مما تحتمل الآلة.

سكتا.

حوله كانت التماثيل الصغيرة تصطف في صمت كالجنود الأوائل لجيش لم يُولد بعد،

والريح كانت تحمل رائحة الطين الجاف والفحم،

ومختار شعر وهو يضم مورا إليه أن النهضة قد بدأت فعلاً،

وأن يدهما المتشابكتين

هما أول خيط يربط بين عالمين.

الفصل الحادي عشر

الليلة الأولى

انتهى النهار الطويل من الرسم والنحت والجفاف تحت الشمس.

التماثيل الصغيرة والألواح كانت مصفوفة بعناية داخل الكوخ وعلى العتبة الخارجية. رائحة الطين الجاف والفحم لا تزال عالقة في الهواء وفي أصابعهما.

مورا أغلقت الباب الحجري خلفهما.

الضوء الوحيد كان مصباح الزيت نفسه الذي رافقهما ليلة الاعتراف. وضعته على الأرض في الزاوية، فامتلأ الكوخ بضوء أصفر دافئ يرسم ظليهما طويلين على الجدار.

جلسا أولاً متقابلين كما في تلك الليلة، لكن المسافة بينهما كانت أقل. مختار مدّ يده ومسح بظهر أصابعه خدها، ثم انزلقت الأصابع إلى عنقها. رفعت هي وجهها إليه دون كلام.

القبلة بدأت هادئة كالعادة، ثم تعمقت أسرع هذه المرة. لساناهما تلاقيا بثقة أكبر، وتنفسهما تسارع. يدا مختار انزلتا على كتفيها ثم على ظهرها، يلمسان القماش الرقيق الذي يغطي جسدها. هي بدورها فتحت أزرار سترته الفضائية ببطء، واحدة بعد أخرى، حتى انزاحت عن كتفيه.

عندما انفصلا قليلاً ليلتقطا أنفاسهما، همست مورا وعيناها لامعتان في الضوء الخافت:

ـ أشعر بجسدي... كما شعرت داخل الآلة. خفيفاً ومضيئاً من الداخل.

رفعها مختار بلطف حتى صارت جالسة على ركبتيه، وجهاً لوجه. قبل عنقها ببطء، من تحت الأذن إلى الترقوة، فمالت برأسها وأطلقت تنهيدة طويلة. يداها انزلقتا تحت قميصه ولمستا جلده العاري، فشعر بحرارتها تنتقل إليه كتيار خفيف.

أزال ثوبها الفضفاض برفق.

ظهر جسدها الزيتوني الكامل في الضوء الأصفر: نهداها صغيران مستديران، حلمتاهما داكنتان ومنتصبتان قليلاً من الإثارة، بطنها مسطح، وورکاها مستديران ناعمان. لم يكن جسدها يشبه أجساد نساء الأرض تماماً، لكنه كان جميلاً بتناسقه الغريب ونعومته المطلقة.

حدّق فيها لحظة طويلة وهو يمرر يديه على كتفيها ثم على نهديها، يتحسسهما ببطء شديد كأنهما شيء هش. ارتجفت تحت لمسته، وأغمضت عينيها. انحنى وقبل حلمة ثديها الأيمن أولاً، ثم الأيسر، بلسان دافئ وبطيء. سمعها تئن همساً، فزاد الضغط قليلاً وامتص برفق.

هي بدورها خلعت ما تبقى من ملابسه. عندما لمست عضوه المنتصب لأول مرة، توقفت لحظة مندهشة من الصلابة والحرارة، ثم أمسكته بأصابعها الناعمة وحركتها ببطء استكشافي. تنهد مختار بعمق وأسند جبهته إلى كتفها.

مدّها على الفراش البسيط المصنوع من الأقمشة السميكة. انحنى فوقها وقبلها من فمها إلى عنقها إلى نهديها إلى بطنها، ثم فتح فخذيها برفق. كانت رطبة جداً بالفعل. لمسها بلسانه أولاً، ببطء شديد، يستكشف الطعم والملمس الجديد. ارتجف جسدها كله، وأمسكت بشعره بقوة وهي تطلق أنيناً أعلى هذه المرة.

عندما رفع رأسه ونظر إليها، كانت عيناها مفتوحتين ومليئتين برغبة صافية وخوف خفيف من شدة الإحساس.

همس وهو يمرر رأس عضوه على مدخلها الرطب:

ـ قولي لي إن أردت أن أتوقف.

هزت رأسها بسرعة وأمسكت بكتفيه:

ـ لا... لا تتوقف. أريد أن أشعر بك داخلي كما شعرنا داخل الآلة.

دفع ببطء شديد.

كانت ضيقة ودافئة بشكل مذهل. دخل سنتيمتراً بعد سنتيمتر، وهو يراقب وجهها. ألم خفيف ظهر في عينيها ثم تلاشى مع تنهيدة طويلة عميقة. عندما وصل بكامله، بقي ساكناً برهة طويلة، يتنفس معها، يترك جسدها يعتاد عليه.

ثم بدأ يتحرك.

حركات بطيئة عميقة أولاً، كاملة، يخرج تقريباً ثم يعود ببطء حتى يرتطم بأعمق نقطة فيها. هي رفعت ركبتيها حول خصره وأخذت تقابله بحركات صغيرة متزايدة الثقة. العرق بدأ يلمع على جلديهما في الضوء الأصفر. صوت التقاء جسديهما الرطب صار يملأ الكوخ مع أنينهما المتقطع.

زادت السرعة تدريجياً. صار يدخلها بقوة أكبر، أعمق، والتصاق جلدهما صار كاملاً. هي عضّت كتفه في لحظة ذروة أولى قصيرة، ثم أخرى أقوى جعلتها ترتجف كلها وتشد عليه من الداخل بشكل متكرر. استمر هو بعدها بقليل، ثم انفجر داخلها بشهقة مكتومة، دافئاً وغزيراً، وهو يضغط جبينه على جبينها.

بقيا ملتصقين وقتاً طويلاً بعد ذلك، يتنفسان بصعوبة، وهو لا يزال بداخلها ينبض برفق. هي تمرر أصابعها على ظهره المبلل، وهو يقبل عينيها المغمضتين ثم شفتيها قبلة بطيئة ممتنة.

همست بعد دقائق، وصوتها مبحوح وسعيد:

ـ الآن... صرت جزءاً مني أكثر من الآلة نفسها.

ضمها إليه بقوة أكبر، دون أن يخرج منها بعد، وأغلق عينيه.

خارج الكوخ كان الليل قد اكتمل،

والنجوم فوق السهل كانت لامعة وباردة،

أما داخله فقد صارت السعادة

جسداً حياً يتنهد بينهما.

الفصل الثاني عشر

المعرفة العلمية

في الصباح التالي استيقظا متشابكين على الفراش نفسه.

ضوء الفجر الرمادي كان يدخل من الشقوق، ورائحة الجنس والعرق الخفيف لا تزال عالقة في الهواء الدافئ داخل الكوخ.

مورا فتحت عينيها أولاً، ابتسمت ابتسامة بطيئة ناعسة، ثم قبلت صدر مختار قرب قلبه. هو ردّ بضمها أقوى، وقبلهما الطويلة الصباحية تحولت بسرعة إلى لمسات أكثر جرأة. هذه المرة لم يكن هناك تردد. خلعا ما تبقى من أقمشة بينهما، ودخلها وهي لا تزال نصف نائمة، ببطء ولذة هادئة، حتى انتهيا معاً في شهقة مشتركة مكتومة.

بعدها جلسا عاريين يأكلان خبزاً محلياً وفاكهة برية، وهو يمرر يده على ظهرها من وقت لآخر كمن يتأكد أنها لا تزال حقيقية.

في ذلك اليوم ظهرت المعرفة الجديدة.

بينما كانوا يعملون على تمثال روماني أكبر حجماً، توقفت مورا فجأة وأمسكت بقطعة معدنية صدئة كانت ملقاة بين الأدوات القديمة في المتحف (كان أحد الشباب قد أحضرها قبل أيام). قلبتها بين أصابعها، ثم قالت بصوت غريب كأن شخصاً آخر يتكلم من خلالها:

ـ إذا سخّنا الماء في وعاء مغلق... البخار يدفع. بقوة.

نظر إليها مختار بدهشة.

خلال الساعات التالية رسمت على التراب مخططاً بسيطاً: وعاء، أنبوب، مكبس، عجلة. ثم شرحت بثقة متزايدة كيف يمكن تحويل قوة البخار إلى حركة دائرية. الشاب الذي كان ينحت التمثال الروماني أضاف تفاصيل عن التروس والتوصيلات، كأنه يتذكر درساً قديماً لم يتعلمه أحد هنا من قبل.

في المساء نفسه صنعوا نموذجاً صغيراً من الطين والمعادن الخردة. أشعلوا ناراً تحته. بعد دقائق بدأ المكبس يتحرك ببطء، ثم أسرع، والعجلة الصغيرة دارت لأول مرة فوق تراب هذا الكوكب بقوة البخار.

وقف الجميع صامتين ينظرون إليها وهي تدور.

مورا أمسكت يد مختار وضغطت عليها بقوة. عيناها كانتا لامعتين لا من السعادة الفنية هذه المرة، بل من فهم أعمق وأخطر.

همست له في الليل وهم يتعانقان عاريين بعد أن مارسا الحب مرة ثانية بهدوء أعمق وثقة أكبر:

ـ الباب الذي فتحته الآلة... لا يعطينا الفن فقط. يعطينا القوة أيضاً. الآلات، النار المنظمة، الحركة التي لا تحتاج إلى حيوانات أو رياح.

كان هو لا يزال بداخلها من الجماع الأخير، يتحرك ببطء خفيف ليحافظ على الاتصال. قبل عنقها وقال بصوت خفيض:

ـ وهل تخافين من هذه القوة؟

صمتت برهة، ثم أجابت وهي تشد ساقيها حوله:

ـ أخاف على الآلة. أما القوة نفسها... فأريدها. أريد أن أرى قومى يبنون ويرتفعون كما رأيت في الصور التي صارت داخل رأسي.

زاد سرعتها قليلاً من تحته، فاستجاب هو وتعمقت الحركات. هذه المرة كانت أطول وأكثر ثقة، بلا خجل من الأصوات أو من السوائل التي تبلل الفراش بينهما. انتهيا معاً مرة أخرى، وهي تعض كتفه برفق وهو يهمس باسمها.

بعدها استلقيا متعانقين، عرقهما يختلط، والتنفس يهدأ ببطء.

خارج الكوخ كانت العجلة الصغيرة التي صنعوها لا تزال موجودة في الظلام،

باردة الآن،

لكنها دارت.

وداخل مختار وموورا كانت المعرفة الجديدة

واللذة الجديدة

تتسارعان معاً

بلا رجعة.

الفصل الثالث عشر

الانقسام

ظهرت أولى علامات الانقسام في اليوم العاشر بعد دوران العجلة البخارية الصغيرة.

مجموعة من كبار القرية وقفت على مسافة من المشغل المفتوح الذي صار يحيط بالكوخ. كانوا ينظرون إلى التماثيل المتزايدة، واللوحات المرسومة على الألواح والجدار، والنموذج البخاري الذي صار أكبر قليلاً ويعمل الآن بانتظام. وجوههم لم تكن سعيدة.

أحدهم، رجل مسن ذو عينين ضيقتين، تقدم وقال بصوت عالٍ يسمعه الجميع:

ـ هذه الأشياء غريبة. لم تكن منّا. الآلة تعطينا السعادة لنعيش كما نحن، لا لنتغير إلى شيء آخر.

شابة من المجموعة الفنية رفعت رأسها من تمثال بابلي كانت تكمله وقالت بهدوء:

ـ الآلة نفسها أعطتنا هذا. نحن لم نختلقه.

ـ لأنها اضطربت بوجود الغريب ـ أجاب المسن مشيراً إلى مختار دون أن ينظر إليه مباشرة. ـ منذ جاء هذا... بدأ كل شيء يختل.

همهمة موافقة علت من بعض الواقفين. آخرون صمتوا، لكن عيونهم كانت تتأرجح بين الفضول والخوف.

في الليلة نفسها احترق لوحان مرسومان كانا معروضين خارج الكوخ. لم يُعرف الفاعل، لكن الرسالة كانت واضحة.

مورا جلست داخل الكوخ بعد أن أطفأت المصباح، رأسها بين يديها. مختار جلس وراءها وضمها إليه من الخلف. بقيت صامتة وقتاً طويلاً قبل أن تقول:

ـ بعضهم يكره ما نفعله. يخافون أن نفقد الآلة إلى الأبد. والبعض الآخر... يريد المزيد.

هو قبل كتفها العاري وقال:

ـ وأنتِ؟

التفتت إليه في الظلام. يداها أمسكتا وجهه.

ـ أنا أريدك. وأريد ما فتحته فينا. حتى لو دفعنا الثمن.

كانت الليلة التالية أطول وأكثر احتياجاً.

خلع كل منهما ملابس الآخر بسرعة أكبر من المعتاد، كأن الجسد هو الملاذ الوحيد الآمن وسط الانقسام الذي بدأ يتشكل خارج الجدران. دخلها دفعة واحدة تقريباً وهي مستلقية على ظهرها، فصرخت بصوت مكتوم من المفاجأة واللذة معاً. هذه المرة لم يكن هناك بطء استكشافي؛ كانت الحركات عميقة وسريعة ومتلاحقة، كأنهما يحاولان الاختباء داخل بعضهما.

قلبها على بطنها ودخلها من الخلف، يداها ممدودتان أمامها تمسكان بحافة الفراش. كان يمسك وركيها بقوة ويغرق فيها حتى النهاية مع كل دفعة. صوت ارتطام جسديهما الرطب صار أعلى، وأنينها تحول إلى كلمات متقطعة بلغة الكوكب وبكلمات أرضية تعلمها منها: أعمق... لا تتوقف... خذني كلها.

انتهيا معاً في ارتعاشة طويلة عنيفة، هو يندفع داخلها بقوة وهي تنقبض حوله مراراً حتى أفرغ كل ما فيه. سقط فوق ظهرها وهو لا يزال مدفوناً فيها، يتنفس بصعوبة، يداها تمسكان بذراعيه بقوة كمن يخاف أن ينسحب العالم من تحتهما.

بعد ساعة عادا مرة أخرى، أبطأ هذه المرة لكن أعمق، وجهاً لوجه، عيون مفتوحة طوال الوقت. قبّل دموعها الخفيفة التي نزلت دون سبب واضح، وهي تقبّل فمه بين الأنّات.

عندما هدأ كل شيء أخيراً، همست وهي تلف جسدها كله حول جسده:

ـ دعهم ينقسمون. نحن... صرنا شيئاً واحداً أكثر مما كانوا يتصورون.

خارج الكوخ كان الظلام يحمل همهمات بعيدة وأصوات أقدام حذرة،

أما داخله فقد صار الجسدان المبللان المتعانقان

الجزيرة الوحيدة التي لا يصلها الانقسام بعد.

الفصل الرابع عشر

التماثيل

مع بداية الأسبوع الثالث صارت التماثيل أكبر من أن تُصنع داخل الكوخ أو حوله.

انتقل العمل إلى سهل مفتوح على مشارف المدينة، حيث الحجر الجيري متوفر والقرب من مجرى الماء يسهل نقل الكتل. مورا كانت تقود كل شيء بهدوء واثق. تشير، تصحح الزوايا، تمسك الإزميل بنفسها أحياناً، وتعمل لساعات تحت الشمس الحارقة.

التمثال الأول الذي اكتمل كان فرعونياً بطول ثلاثة أمتار: جالس على عرش حجري، اليدان على الركبتين، الوجه متجهم وملكي، واللحية المستعارة منحوتة بدقة مذهلة. بعده مباشرة بدأوا في تمثال روماني واقف لرجل عارٍ تقريباً، عضلاته محددة، رأسه مرفوع في كبرياء كلاسيكي. ثم أسد بابلي مجنح بطول أربعة أمتار، ثم بوذا هندي جالس في وضعية اللوتس، ثم تنين صيني يلتف حول عمود حجري مرتفع.

الجماعة الفنية صارت تضم أكثر من عشرين شاباً وفتاة. بعضهم ينحت، بعضهم يصقل، بعضهم ينقل الحجارة على زحافات خشبية بدائية. السكان المنقسمون كانوا يراقبون من بعيد: فريق ي<object> يزور المكان خلسة ويعجب رغم أنفه، وفريق آخر يهمس باللعنات ويحذر من غضب الآلة.

في أحد الأيام الحارة جداً، خلعت مورا الجزء العلوي من ثوبها الفضفاض لتخفف من الحر. بقيت عارية الصدر وهي تنحت تفاصيل وجه الفرعون، العرق يلمع على نهديها وكتفيها وظهرها. لم يعلق أحد من الجماعة؛ كانوا قد اعتادوا على جسدها بهذا الشكل أثناء العمل. لكن مختار، الذي كان يساعد في رفع كتلة حجرية، توقف لحظة ونظر إليها.

شعر بالحرارة تتصاعد في أسفل بطنه فوراً.

اقترب منها بحجة تعديل زاوية الإزميل، ووضع يده على خصرها العاري من الخلف كأنه يوجهها. أصابعه لمست جلدها المبلل بالعرق، فانزلقت قليلاً إلى أسفل نحو وركها. هي لم تتوقف عن النحت، لكنها ضغطت جسدها إلى الوراء قليلاً نحو يده، وابتسامة صغيرة ظهرت على فمها دون أن يراها الآخرون.

في استراحة الظهيرة، انفردا خلف كتلة حجرية كبيرة بعيداً عن الأعين. قبلها بعنف هذه المرة، يداها تمسكان برأسه، وصدرها العاري يضغط على قميصه. أدخل يده تحت ما تبقى من ثوبها ووجدها رطبة بالفعل. لم يطل الأمر. أسندها إلى الحجر البارد، رفع أحد فخذيها، ودخلها واقفين دفعة واحدة. كانت ساخنة وضيقة ومبللة بعرقها ورغبتها. دفع بقوة وسرعة، يداه تمسكان نهديها العاريين، وهي تعض شفته لتكمم أنينها. انتهى بسرعة عنيفة داخلها، وهي تنقبض حوله بقوة وتهمس باسمه بين أنفاسها المتلاحقة.

عادا إلى العمل بعد دقائق، هي ما زالت عارية الصدر والعرق الجديد يلمع على جسدها، وهو يحاول أن يبدو طبيعياً بينما بقايا لذتهما لا تزال تسيل ببطء على فخذها الداخلي.

مع غروب ذلك اليوم اكتمل الأسد البابلي المجنح.

وقف الجميع ينظرون إليه في الصمت.

التمثال كان هائلاً ومخيف الجمال تحت الضوء الأحمر الأخير، جناحاه ممدودان كأنهما يستعدان للطيران، وفمه مفتوح في زمجرة حجرية صامتة.

مورا وقفت أمامه، ما زالت عارية الصدر، ووضعت يدها على مخلبه الضخم.

التفتت إلى مختار وهمست بحيث لا يسمعها أحد غيره:

ـ غداً نبدأ البوذا... وبعده التنين.

ثم أضافت ونظرة عينيها تغيرت إلى تلك النظرة التي صارت يعرفها جيداً:

- وفي الليل... أريدك أعمق من اليوم.

هو أمسك يدها الملطخة بغبار الحجر وقبّل راحتهما المتسخة،

بينما الظلال الطويلة للتماثيل العملاقة

كانت تمتد على السهل

كأن حضارات الأرض كلها

قد قررت أن تولد من جديد

فوق تراب هذا الكوكب البعيد.

الفصل الخامس عشر

العمارة والموسيقى والألعاب

مع اكتمال التنين الصيني والبوذا الهندي، انتقل العمل إلى شيء أكبر: المباني نفسها.

مورا وقفت على تل صغير وأشارت بيدها نحو السهل المسطح قرب المدينة القديمة. قالت للجماعة بصوت واضح واثق:

- هنا. سنبني قصراً أولاً... ثم مسرحاً، ثم ساحة للألعاب.

بدأوا في اليوم نفسه.

الحجارة نُقلت بكميات أكبر، والرافعات الخشبية البدائية التي صمموها بأنفسهم صارت ترفع الكتل إلى ارتفاعات لم يعرفها الكوكب من قبل. الأعمدة الكورنثية ارتفعت أولاً، ثم الأقواس نصف الدائرية، ثم القباب الصغيرة المستوحاة من عصر النهضة. الجدران صارت تحمل زخارف روكوكو معقدة: أوراق متداخلة، وجوه ملائكة صغيرة، ومنحنيات أنيقة لم يرها أحد هنا من قبل. الواجهات صارت متماثلة، والنوافذ طويلة مقوسة، والسلالم العريضة تنزل إلى حدائق لم تُزرع بعد.

في الوقت نفسه ظهرت الموسيقى.

شاب كان يعمل في نحت الأعمدة توقف فجأة ذات صباح وأمسك بقطعة خشب طويلة رفيعة. حفرها، شدّ عليها أوتاراً من أمعاء حيوانات مجففة، وصنع أول قيثارة على الكوكب. عزف عليها نغماً حزيناً جميلاً جعل الجميع يتوقفون عن العمل ويستمعون. خلال أيام صارت هناك نايات من القصب، طبول كبيرة من الجلد، وآلات وترية

أكبر تشبه الكمان والعود. في المساء كانوا يجتمعون حول النار ويعزفون ألحاناً لم تُسمع من قبل: بعضها هادئ يشبه موسيقى الآلة نفسها، وبعضها حماسي سريع يجعل الأجساد تتحرك من تلقاء نفسها.

ثم جاءت الألعاب.

في الساحة الكبيرة التي مهدوها أمام القصر غير المكتمل، بدأ الشباب في الجري لمسافات، ثم القفز الطويل، ثم رمي الرماح الحجرية، ثم المصارعة على التراب. مورا نفسها رسمت دوائر وحدوداً، وحددت قواعد بسيطة. سرعان ما صارت المسابقات يومية: سباقات جري، قفز عالٍ باستخدام أقطاب خشبية، رمي أقراص حجرية، ومصارعة حرة. الجمهور من القرى المجاورة بدأ يتوافد، حتى بعض الرافضين كانوا يقفون من بعيد ويتابعون رغم أنفسهم. الفائزون يُتوَّجون بأكاليل من أغصان خضراء، والمهزومون يصفقون بلا حقد واضح.

القصر كان لا يزال هيكلاً مفتوحاً حين انفرد مختار ومورا داخله بعد غروب أحد الأيام الطويلة. الأعمدة الضخمة كانت تلقي ظلالاً طويلة في ضوء القمر، والرياح تمر عبر النوافذ الفارغة فتحدث صفيراً خفيفاً يشبه الموسيقى.

مورا كانت لا تزال ترتدي ثوب العمل الممزق والمتسخ بالغبار. خلعه مختار عنها دفعة واحدة تقريباً، فظهرت عارية تماماً تحت الضوء الفضي. قبلها بعنف هذه المرة، ودفعها حتى استندت ظهرها إلى عمود كورنثي بارد. رفع أحد فخذيها عالياً ودخلها واقفين بقوة واحدة جعلتها تصرخ بصوت لم تحاول كتمه. كانت رطبة جداً من التعب والرغبة المتراكمة طوال اليوم.

دفع بسرعة وعنف، كل دفعة ترفعها قليلاً على العمود. يداها تمسكان بتاج العمود المزخرف من خلفها، وصدرها يرتطم بصدره مع كل حركة. العرق والغبار اختلطا على جلديهما. هو أمسك نهديها بقوة وعضّ عنقها، وهي لفّت ساقها الحرة حول خصره وأخذت تطلب منه بصوت مبحوح:

ـ أقوى... أعمق... املأني كلها...

قلبها فجأة وجعلها تنحني إلى الأمام ممسكة بقاعدة العمود، ودخلها من الخلف دفعة واحدة حتى ارتطمت بطنها بالحجر. أمسك وركيها بقوة وكاد يرفعها عن الأرض مع كل اندفاعة. صوت ارتطام جسديهما صار يملأ القاعة المفتوحة مع أنينها العالي المتقطع. عندما انفجرا معاً، ظل يدفع داخلها مراراً حتى سال مزيج سوائلهما على فخذيها وعلى الحجر البارد تحتها.

سقطا بعد ذلك على أرضية القصر غير المكتملة، هي فوقه هذه المرة، تركب ببطء عميق وهي لا تزال تنقبض حوله بعد الذروة. القيثارة البعيدة كانت تُعزف في مكان ما من المخيم، وأصوات الضحك من الساحة الرياضية تصل خافتة.

همست مورا وهي تتحرك فوقه ببطء، العرق ينزل من بين نهديها على صدره:

ـ غداً نكمل الجناح الشرقي... ونضيف حلبة أكبر للألعاب.

ثم انحنت وقبلته قبلة طويلة مبللة وأضافت:

ـ وبعدها... أريدك هنا مرة أخرى. فوق كل عمود إن لزم الأمر.

هو أمسك وركيها ورفعها ثم أنزلها عليه بعمق،

بينما القمر يضيء الأعمدة والزخارف الناقصة،

والموسيقى البعيدة تمتزج بأنفاسهما،

والنهضة كلها

ـ حجراً ونغماً وجسداً ـ

كانت لا تزال في بدايتها فقط.

الفصل السادس عشر

الثورة الصناعية

في الأسبوع السادس بعد اكتمال الجناح الشرقي للقصر، ظهرت المداخن الأولى.

على بعد كيلومتر واحد من المدينة القديمة، بنيت أول ورشة حديد كبيرة. الأفران التي صمموها بأنفسهم كانت تلتهم الحطب والفحم الحجري الذي اكتشفوه في التلال القريبة، وتخرج منه قضباناً معدنية متوهجة تُطرق وتُشكَّل. بعدها جاءت ورشة النسيج: أنوال خشبية كبيرة تتحرك بقوة البخار، وخيوط تُغزل بسرعة لم يعرفها الكوكب من قبل. ثم السكة الحديدية البدائية: قضيبان متوازيان من الحديد يمتدان أولاً لمئتي متر فقط، وعربة صغيرة تُدفع بالبخار تحمل الحجارة والعمال.

المداخن كانت تطلق دخاناً أسود كثيفاً إلى السماء الصافية التي لم تعرف التلوث من قبل. بعض السكان وقفوا يبكون من الفرحة، وآخرون غطوا أفواههم ولعنوا اليوم الذي هبطت فيه السفينة الفضائية.

مورا كانت في قلب كل شيء. تنتقل بين الورشة والسكة والقصر، ثوبها متسخ بالسخام والزيت، يداها خشنتان من العمل، لكنها كانت تبدو أكثر حيوية وإشراقاً من أي وقت مضى. في الليل كانت تعود إلى مختار متعبة وملتهبة في آنٍ واحد.

صارت العلاقة بينهما شبه يومية ومفرطة.

لا يكاد يمر مساء دون أن يطلب أحدهما الآخر بشدة. في الورشة بعد أن ينصرف العمال، فوق عربة السكة الحديدية المتوقفة، داخل غرفة الماكينات حيث صوت المحرك البخاري يغطي أنينهما، وحتى على أرضية المصنع الترابية بين أكوام الحديد.

في إحدى الليالي، بعد يوم طويل من تشغيل أول قطار تجريبي لمسافة كيلومتر كامل، عادا إلى غرفة صغيرة بنوها خلف الورشة. مورا لم تنتظر. دفعته إلى الجدار وخلعت عنه ملابسه بسرعة، ثم جثت على ركبتيها وأخذته في فمها بعمق وجوع واضح. لسانها وشفاهها كانا يعملان بمهارة متزايدة، وهي تنظر إليه من تحت بينما تبتلعه تقريباً. عندما حاول أن يرفعها، أبعدته بيدها وأكملت حتى كاد ينفجر، ثم توقفت فجأة ووقفت.

همست وهي تمسح فمها ووجهها ملتهب:

ـ أريدك قاسياً الليلة. أعمق من كل مرة. أريد أن أشعر بك كما شعرت بالسعادة داخل الآلة... قوية، كاملة، لا ترحم.

قلبها إلى الحائط، رفع ثوبها إلى خصرها، ودخلها دفعة واحدة عنيفة من الخلف. صرخت بصوت عالٍ هذه المرة ولم تحاول كتمه. أمسك شعرها القصير بيده الواحدة ووركها بالأخرى، وبدأ يدفع بقوة وسرعة متزايدة، كل دفعة تهز جسدها كله وترفعها على أصابع قدميها. كانت تتكلم بين الأنّات المتلاحقة بصوت مبحوح مكسور:

ـ نعم... هكذا... املأني... أكثر... أشعر بك في كل مكان داخلي... مثل الضوء... مثل الموسيقى... لا تتوقف... حطمني إن لزم...

زاد عنفه استجابة لطلبها. صار يرتطم بها بقوة تجعل صوت اللحم على اللحم يملأ الغرفة مع صوت تنهيداتها العالية. عندما أحس أنها تقترب، مدّ يده إلى الأمام وفركها بسرعة بينما يواصل الاندفاع العميق. انفجرت حوله في ارتعاشة طويلة عنيفة، تنقبض بقوة متكررة وتصرخ اسمه، فأطلق هو نفسه داخلها دفعة قوية بعد أخرى حتى سال الفائض على فخذيها ونزل إلى الأرض.

لم يكتفِ.

بعد دقائق قليلة ألقاهما على الفراش الخشن ودخلها من الأمام هذه المرة، ساقاها فوق كتفيه، يطويها تقريباً وهو يغرق فيها حتى النهاية. كانت لا تزال شديدة الحساسية بعد الذروة الأولى، فأخذت تبكي من شدة اللذة وتطلب منه المزيد بصوت مكسور. استمر طويلاً هذه المرة، يغير الزوايا والعمق، حتى بلغت ذروة ثانية أقوى جعلتها تخدش ظهره بأظافرها. عندها فقط سمح لنفسه بالانفجار مرة ثانية في أعماقها، شهقة طويلة مكتومة وهو يضغط جبينه على جبينها.

بعدها استلقيا وسط الفوضى، العرق والسخام والسوائل تختلط على جلديهما وعلى الفراش. هي لا تزال تنقبض حوله من حين لآخر وهي تهمس:

ـ كل مرة... أقرب إلى تلك السعادة. لكن هذه... ملكي وحدي. ملكنا.

خارج الغرفة كانت المداخن لا تزال تطلق دخانها الخفيف في الليل،

والسكة الحديدية تلمع تحت ضوء القمر كجرح فضي طويل في جسد الكوكب،

أما هما فقد صارا جزءاً من الآلة الجديدة:

آلة من لحم ودم وبخار ورغبة

لا تتوقف عن الدوران.

الفصل السابع عشر

النظام الجديد

في الشهر الثاني بعد دوران أول قطار، ظهر النظام.

مورا جلست ذات صباح مع مجموعة من الشباب الأكثر نشاطاً ورسمت على لوح كبير خريطة جديدة للمدينة وما حولها. قسمت الأراضي، حددت مواقع للمدارس، للأكاديميات الفنية والعلمية، للثكنات، وللمكاتب الإدارية. قالت ببساطة:

ـ يجب أن نتعلم بطريقة منظمة. وأن ندير بطريقة منظمة. وإلا فإن كل ما بنيناه سينهار مع أول فوضى.

خلال أسابيع قليلة ارتفعت أول أكاديمية: مبنى كلاسيكي الأعمدة فيه قاعات للرسم والنحت والموسيقى والرياضيات والميكانيكا. الأطفال والصبية صاروا يذهبون إليها كل صباح. ظهر تعليم إلزامي بسيط للقراءة والكتابة والحساب، ثم للموسيقى والألعاب الرياضية. جيش صغير نظامي بدأ يتدرب في الساحة الكبيرة: صفوف، أوامر، رماح وبنادق بدائية صنعت في الورشة. مكاتب إدارية فتحت في جناح من القصر، وسجلات تُكتب لأول مرة عن المحاصيل والإنتاج وعدد السكان.

كان يشبه، كما همس مختار لمورا ذات ليلة، الإمبراطوريات التي عرفها على الأرض في أواخر القرن التاسع عشر: النظام، البيروقراطية، الانضباط، والطموح نفسه.

ومع النظام الجديد صارت الرغبة بينهما أكثر جوعاً وتنقلاً.

في المعمل البخاري، بعد أن انصرف العمال عند الغروب، أغلق مختار الباب الحديدي ودفع مورا إلى طاولة العمل المعدنية الساخنة قليلاً من حرارة النهار. رفع ثوبها، فتح فخذيها على اتساعهما، وأخذ يلحسها ببطء عميق أولاً ثم بسرعة متزايدة حتى ارتجفت وبللت ذقنه تماماً. بعدها قلبها على بطنها فوق الطاولة ودخلها دفعة واحدة عنيفة. كان يدفع بقوة والطاولة تهتز، يداه تمسكان نهديها بقسوة، وهي تئن بصوت عالٍ يغطيه جزئياً صفير البخار المتبقي في الأنابيب. عندما انتهى داخلها بقي مدفوناً فيها وقتاً طويلاً وهو يعض كتفها.

بعد يومين صعدا إلى سطح القصر الكلاسيكي غير المكتمل تماماً بعد. تحت ضوء القمر الكامل، جلست مورا فوقه عارية تماماً، ظهرها إلى صدره، وهو يدخلها ببطء من الخلف وهي جالسة القرفصاء. يداها ممدودتان إلى الخلف تمسكان برقبته، وهو يرفعها وينزلها على عضوه بعمق كامل. كانت تتكلم طوال الوقت بصوت مبحوح:

ـ انظر إلى المدائن تحتنا... كلها صارت لنا... وأنت داخلي الآن... أعمق من أي شيء...

زادت سرعتها هي بنفسها حتى بلغت ذروة مرتجفة طويلة، فأمسك وركيها بقوة ورفعها لأعلى ثم أنزلها بقسوة مرات متتالية حتى انفجر فيها وهو يئن في عنقها.

وفي ليلة ثالثة هربا إلى الغابة القريبة من السكة الحديدية. هناك، على فراش من الأوراق الرطبة، أخذته هي في فمها أولاً حتى صار صلباً كالحجر، ثم استلقت على ظهرها ورفعت ساقيها عالياً حتى لمست ركبتاها تقريباً كتفيها. دخلها بهذه الزاوية العميقة جداً وراح يدفع ببطء شديد في البداية ثم بعنف متصاعد. كانت تصرخ مع كل دفعة وتطلب المزيد بصراحة فاحشة لم تعد تخجل منها:

ـ املأ رحمي... أريد أن أشعر بسائلك يصل إلى أعمق مكان... حطمني... خذني كأنها آخر مرة...

استجاب. صار يرتطم بها بقوة تجعل جسدها ينزلق على الأوراق، وهو يفركها في الوقت نفسه بأصابعه حتى بلغت ذروتين متتاليتين قويتين قبل أن يفرغ هو نفسه داخلها دفعة بعد دفعة ساخنة غزيرة.

بعدها استلقيا متعانقين وسط الغابة، أنفاسهما مختلطة برائحة التراب والأوراق والجنس.

همست مورا وهي تمرر أصابعها على ظهره المخدوش:

ـ النظام الجديد... المدارس... الجيش... المكاتب... كلها جميلة.

لكن هذا ـ وضيقت عليه من الداخل قليلاً وهي لا تزال تحتفظ به داخلها ـ

هذا هو النظام الحقيقي الذي أريده كل يوم.

هو قبّل جبينها المبلل بالعرق،

بينما أضواء المدينة الجديدة والمداخن البعيدة

كانت تلمع من خلال الأشجار

كنجوم أرضية

ولدت للتو.

الفصل الثامن عشر

تصدع أعمق

في الليلة التي اكتمل فيها الجناح الغربي للقصر، شعرت مورا بالألم لأول مرة بوضوح.

كانت تقف مع مختار على الشرفة العالية تنظران إلى المدينة التي صارت تضيء بمصابيح زيتية جديدة ومداخن لا تزال تدخن بعد غروب الشمس. فجأة أمسكت بصدرها وت<object> إلى الأمام قليلاً، وجهها شاحب.

ـ ماذا؟ ـ أمسكها مختار بسرعة.

ـ الآلة... ـ صوتها كان مبحوحاً. ـ أشعر بها. الشقوق صارت أوسع. كأنها... تبكي من الداخل.

أجلسها على مقعد حجري. كانت ترتجف خفيفاً، وعرق بارد يلمع على جبينها رغم الهواء المعتدل. أغلقت عينيها برهة ثم فتحتها ونظرت إليه بنظرة يائسة جديدة لم يرها فيها من قبل.

ـ السعادة التي كانت تعطينا إياها... صارت أبعد. كل مرة أدخلها الآن أشعر بألم مع الضوء. كأنها تتقطع ونحن ما زلنا نأخذ منها.

في تلك الليلة لم تنتظر حتى يصلا إلى غرفتهما.

في الممر الطويل ذي الأعمدة، دفعته إلى الحائط وقبّلته بعنف جائع. يداها كانت ترتجفان وهي تخلع ملابسه وملابسها. جثت أمامه على الرخام البارد وأخذته في فمها بعمق يائس، تبتلعه تقريباً، دموعها تنزل على خديها دون صوت. عندما رفعها، لفّت ساقيها حول خصره وهو ما زال واقفاً ودخلت نفسها عليه دفعة واحدة حتى ارتطمت به بأعمق نقطة.

ـ خذني ـ همست بصوت مكسور وهي تتحرك عليه بعنف. ـ املأني حتى لا يعود هناك مكان للألم. أريد سعادتك أنت... فقط أنت.

حملها إلى غرفتهما دون أن يخرج من داخلها. ألقاها على الفراش وبدأ يدفع بقوة عنيفة فورية. لم يكن هناك تمهيد هذه المرة. كل دفعة كانت كاملة وعميقة وقاسية، كأنه يحاول أن يطرق شيئاً داخلها ليحل محل ما كانت تعطيه الآلة. هي كانت تصرخ وتبكي في الوقت نفسه، أظافرها تغرس في ظهره وكتفيه، وساقاها تلفانه بقوة يائسة.

ـ أعمق... أقسى... لا ترفق بي... أريد أن أشعر بك فقط... مثل الضوء القديم... مثل الموسيقى... حطمني إن كان هذا ما يبعد الألم...

استجاب لطلبها. قلبها على بطنها ورفع وركيها عالياً ودخلها من الخلف بزاوية تجعل كل اندفاعة تصل إلى أبعد مكان ممكن. أمسك شعرها وشدّ رأسها إلى الخلف وهو يرتطم بها بقوة تجعل الفراش يتحرك والصوت الرطب العالي يملأ الغرفة. كانت تبلل الفراش تحتها بغزارة، مزيج من رغبتها ودموعهما وعرقهما. عندما أحس أنها تقترب من ذروة عنيفة، زاد السرعة والعمق حتى صرخت صرخة طويلة مكسورة وانقبضت حوله بقوة متلاحقة كأنها تتشنج. عندها فقط أطلق هو نفسه داخلها بدفعات قوية متتالية، يفرغ كل ما فيه وهو يئن كمن يتألم من شدة اللذة.

لم ينتهِ الأمر.

بعد دقائق قليلة، وهي ما زالت ترتجف وتبكي بصمت، دخلها من جديد وهي مستلقية على جانبها، ساقها العليا مرفوعة، وهو يتحرك ببطء أعمق هذه المرة وأكثر يأساً. يده كانت تمسح دموعها وهو يقبل وجهها المبلل ويهمس:

ـ أنا هنا. أنا البديل. خذيني كلها.

ظلا هكذا ساعات.

مرات متعددة، أوضاع مختلفة، كلها عنيفة ومبللة ويائسة. كانت تطلب منه في كل مرة أن يكون أقسى، أعمق، أن يملأها حتى الثمالة، كأنها تحاول أن تغرق الألم القادم من الآلة بفيض من جسده. في المرة الأخيرة جلست فوقه وركبت ببطء شديد وعميق جداً، عيونها مغلقة، دموعها تنزل على صدره، وهي تهمس مراراً:

ـ أنت سعادتي الآن... أنت... أنت...

عندما انتهيا أخيراً وسقطت فوقه منهكة، كان الفجر قد اقترب. جسداهما كانا مبللين بالكامل: عرق، سوائل، دموع. هو ما زال بداخلها، ينبض بضعف، وهي تتشبث به كمن يتمسك بحافة هاوية.

خارج النافذة كانت المداخن والمدنية الجديدة والأكاديميات

كلها تنام تحت ضوء الفجر الرمادي،

أما الآلة البعيدة في المتحف

فكانت تتصدع أعمق فأعمق في الصمت،

وموورا كانت تبحث عن سعادتها البديلة

في جسد الرجل الذي جاء من النجوم

وغيّر كل شيء إلى الأبد.

الفصل التاسع عشر

اكتشاف الطاقم

في اليوم الذي اكتمل فيه أول جسر حديدي فوق المجرى المائي، اكتُشف الأمر.

رائد الفضاء كريم، من قسم المساحة والرصد، كان قد أُرسل في جولة روتينية لتحديث الخرائط الطبوغرافية. ابتعد عن المسارات المعتادة ووصل إلى مشارف المدينة الجديدة. رأى المداخن، السكة الحديدية، القصر ذو الأعمدة الكلاسيكية، الساحة الرياضية، والأكاديمية. وقف طويلاً ينظر من وراء شجرة، ثم التقط صوراً بعدسة جهازه المحمول وعاد إلى السفينة دون أن يُرى.

في مساء اليوم نفسه استدعى القائد مختار إلى غرفة القيادة.

كان القائد يقف أمام الشاشة الكبيرة التي تعرض الصور: التماثيل العملاقة، المصانع، القطارات الصغيرة، المباني ذات الطراز الأرضي الواضح، وحتى مجموعة من السكان يعزفون على آلات موسيقية في ساحة عامة.

التفت القائد ببطء، وجهه صارم تماماً.

ـ هذا ليس تطوراً طبيعياً يا مختار. هذه معرفة أرضية... وفنية... وصناعية. من أين جاءت؟

مختار حافظ على هدوئه الخارجي.

ـ الحضارة المحلية أكثر تعقيداً مما بدت في البداية. كنت أراقب وأوثق.

ـ تكذب. ـ صوت القائد كان بارداً. ـ هذه تماثيل فرعونية ورومانية وصينية. هذه عمارة نهضة وروكوكو. هذه ثورة صناعية في مهدها. أنت تعرف شيئاً لم تخبرنا به. وسأعرفه. أعطيتك أربعاً وعشرين ساعة لتقديم تقرير كامل وصادق. بعد ذلك سأضطر إلى إبلاغ القيادة العليا على الأرض... وربما التدخل المباشر.

خرج مختار من السفينة ووجهه شاحب.

عندما وصل إلى مورا في غرفتهما داخل القصر، كانت تنتظره. رأت عينيه وعرفت فوراً.

ـ اكتشفوا؟

أومأ.

ـ غداً يجب أن أقدم تقريراً. أو... أقرر شيئاً آخر.

في تلك الليلة صارت العلاقة بينهما أكثر حدة من أي وقت مضى، كمهرب يائس من الساعة الرملية التي بدأت تنفد.

أغلق الباب بالمزلاج الخشبي الثقيل وقبّلها بعنف فور دخوله. مزق ثوبها تقريباً وهو يدفعها نحو السرير. دخلها دفعة واحدة وهي ما زالت نصف قائمة، فصرخت من المفاجأة والألم اللذيذ معاً. هذه المرة لم يطلب منها أن تقول له ماذا تريد؛ هو من أخذ بقسوة وجوع واضح. قلبها على بطنها ورفع وركيها وراح يضرب داخلها بعمق وسرعة متوحشة، يداها ممدودتان تمسكان بالقضبان الخشبية للسرير، وهي تئن وتبكي وتطلب المزيد رغم كل شيء.

ـ لا تتوقف... استخدمني... املأني حتى أنسى غداً...

ظل هكذا وقتاً طويلاً. غيّر الزوايا، رفعها على أربع، ثم جعلها تجلس فوقه بالقوة وهو يرفعها وينزلها على عضوه كأنها دمية. في المرة الثالثة أخذها وهي مستلقية على ظهرها، ساقاها مفتوحتان على اتساعهما فوق كتفيه، وهو ينظر في عينيها طوال الوقت وهو يفرغ داخلها دفعة ساخنة بعد أخرى. هي بلغت ذروة قوية جداً جعلتها تخدش صدره حتى أدمت، ثم سقطت مرتخية تماماً تحته وهي لا تزال تنقبض حوله.

بعد ساعة عاد إليها من جديد، أبطأ هذه المرة لكن أعمق وأكثر يأساً. جعلها تبتلعه في فمها أولاً حتى صار جاهزاً مرة أخرى، ثم دخلها وهي على جنبها وهما متعانقان وجهاً لوجه. كانا يبكيان بصمت أثناء الجماع، دموعهما تختلط، وهو يهمس في أذنها:

ـ مهما حدث غداً... أنتِ سعادتي. أنتِ قراري.

انتهيا معاً في شهقة طويلة مشتركة، وظلا ملتصقين بعدها دون أن ينفصل عنها، كأنه يخشى أن يضيع الاتصال الوحيد المتبقي لهما.

خارج القصر كانت أضواء السفينة الفضائية تلمع في الأفق البعيد كالتهديد الصامت،

والمداخن ما زالت تطلق دخانها الليلي،

أما هما فقد حاولا أن يغرقا العالم كله

في جسد واحد مبلل ومرهق

قبل أن يأتي الصباح

ويفرض عليهما الاختيار النهائي.

الفصل العشرون

المواجهة

في الصباح التالي دخل مختار غرفة القيادة مرتدياً زيه الفضائي الكامل.

القائد كان ينتظره مع اثنين من الضباط وكرين، رائد المساحة الذي التقط الصور. الشاشة الكبيرة ما زالت تعرض صور المدينة الجديدة والتماثيل والمصانع.

القائد لم يضيع وقتاً.

ـ التقرير يا مختار. كاملاً. الآن.

مختار وقف منتصباً ونظر مباشرة في عيني القائد.

ـ ليس هناك ما أضيفه إلى التقارير السابقة. الحضارة المحلية شهدت تسارعاً داخلياً غير متوقع. أنا وثّقت ما رأيته.

ـ كذب. ـ صوت القائد ارتفع قليلاً. ـ هذه معرفة أرضية صريحة. تماثيل، عمارة، بخار، سكك، موسيقى، ألعاب أولمبية... كل هذا جاء منك أو بسببك. أين المصدر؟

ـ لا يوجد مصدر أرضي نقلته أنا. هذا كل ما لدي.

الصمت امتد ثقيلاً داخل الغرفة. أحد الضباط تحرك كأنما يريد الكلام، لكن القائد رفع يده وأسكته. اقترب من مختار حتى صار على بعد خطوة واحدة فقط.

ـ أنت تخفي شيئاً خطيراً. إذا لم تتكلم خلال اثنتي عشرة ساعة، سأعتبرك عاصياً للأوامر وسأبلغ القيادة العليا فوراً. وقد نضطر إلى احتجازك... وإلى التدخل المباشر في هذه الحضارة قبل أن تتحول إلى تهديد أو فرصة ضائعة.

مختار لم يغضّ بصره.

ـ قراري نهائي. لن أقدم أكثر مما قدمت.

خرج من غرفة القيادة وسط صمت مطبق. شعر بعيون الجميع تلاحقه حتى باب السفينة.

عندما عاد إلى القصر كانت مورا تنتظره في الغرفة نفسها التي قضيا فيها الليلة السابقة. رأت وجهه وعرفت النتيجة فوراً. لم تسأله. اقتربت منه ووضعت يديها على صدره، ثم رفعت وجهها وقبلته قبلة طويلة بطيئة مليئة بكل شيء لم يعد يحتاجان إلى قوله.

في تلك الليلة سانده جسدها بكل ما تملك.

أطفأت كل المصابيح وأشعلت شمعة واحدة فقط. خلعت عنه الزي الفضائي بنفسها، قطعة قطعة، وهي تقبّل كل جزء تكشفه من جلده. جعلته يستلقي على ظهره وركبت فوقه ببطء شديد، ممسكة بعضوه وموجهة إياه إلى داخلها برفق حتى غابت عليه تماماً. تحركت أولاً بحركات دائرية عميقة هادئة، عيناها مفتوحتان تنظران في عينيه طوال الوقت.

ـ أنا معك ـ همست. ـ مهما كان القرار... أنا معك.

زادت سرعتها تدريجياً. صارت ترتفع وتنزل بقوة أكبر، نهداها يتحركان مع كل حركة، وأنينها يملأ الغرفة مع صوت التقاء جسديهما. هو أمسك وركيها وساعدها، يرفعها وينزلها بعمق متزايد. عندما أحس أنها تقترب، رفع رأسه وامتص حلمة ثديها بقوة، فبلغت ذروتها وهي تشد عليه من الداخل بقوة متلاحقة وتهمس اسمه مراراً.

بعدها انقلبا. صار هو فوقها، ساقاها مفتوحتان واسعاً، وهو يتحرك ببطء عميق جداً وطويل، كأنه يريد أن يطيل اللحظة إلى ما لا نهاية. قبّل دموعها التي نزلت بهدوء، وهي تلف ذراعيها وساقيها حوله كأنها تريد أن تدمجه فيها إلى الأبد. انتهيا معاً في شهقة واحدة طويلة صامتة تقريباً، وظل داخلها بعدها دون أن يتحرك، يداها تمسحان ظهره وعرقه.

في منتصف الليل عادت إليه مرة أخرى. هذه المرة جعلته يأخذها من الخلف وهي جاثية على أربعة، بطيئاً وعميقاً في البداية ثم بقوة متزايدة كلما طلبت منه ذلك بصوت مبحوح. كانت تسانده بكل جسدها، بكل أنينها، بكل كلمة حب ويأس ووفاء تخرج من فمها بين الدفقات.

عندما سقطا أخيراً متعانقين ومنهكين مع اقتراب الفجر، همست في أذنه وهي ما زالت تحتفظ به في داخلها:

ـ غداً سيأتون. لكن الليلة... أنت هنا. وأنت لي.

هو ضمها بقوة أكبر وأغلق عينيه،

بينما الساعة الرملية كانت تنفد خارج الجدران،

والقرار الذي اتخذه

قد صار الآن لا رجعة فيه.

الفصل الحادي والعشرون

العرض والتهديد

في الساعة المحددة ظهرت ثلاث مركبات هبوط صغيرة من السفينة «خفرع» وهبطت على السهل أمام القصر مباشرة.

القائد نزل أولاً مع أربعة ضباط مسلحين بأسلحة صاعقة خفيفة، وكرين، وعالمة التحليل الطيفي. كانوا يرتدون البدلات الفضائية الكاملة كإشارة رسمية للسلطة.

مورا وقفت إلى جانب مختار على درجات القصر العريضة. خلفهما تجمع عشرات من سكان المدينة الجديدة في صمت متوتر، بعضهم يحمل أدوات عمل، وبعضهم يقف فقط للمراقبة.

القائد رفع جهاز الترجمة الآلي وتكلم بصوت واضح يسمعه الجميع:

ـ بموجب سلطة الأسطول الاستكشافي الأرضي، نعلن أن هذه الحضارة صارت موضع اهتمام استراتيجي. المعرفة التي ظهرت هنا... الفنية والصناعية والتنظيمية... ذات قيمة عالية. نعرض التعاون الكامل: حماية، تقنيات إضافية، ودمج تدريجي مع الاتحاد الفضائي. مقابل الشفافية الكاملة حول مصدر هذه النهضة.

نظر مباشرة إلى مختار.

ـ أو نعتبر الأمر تهديداً محتملاً ونتعامل معه وفق البروتوكولات الأمنية. لديك ساعة واحدة للرد النهائي يا رائد زكي.

مختار لم يجب فوراً. نظر إلى مورا، ثم إلى الوجوه الزيتونية المتوترة خلفه، ثم عاد ببصره إلى القائد.

ـ الرد سيكون بعد أن أتشاور مع من يخصهم الأمر هنا. ساعة واحدة كما قلت.

القائد ضيّق عينيه لكنه أومأ. انسحب مع رجاله إلى مسافة مئة متر وانتظروا بجانب المركبات.

مورا أمسكت يد مختار وسحبته إلى داخل القصر دون كلام. صعدا إلى الجناح الغربي الذي لم يكتمل بعد، حيث الأعمدة مفتوحة على السماء والغبار لا يزال يغطي الأرضية.

بمجرد أن أغلق الباب الحجري خلفهما انفجرا في بعضهما.

قبّلته بعنف يائس كأنها تريد أن تبتلعه. مزقت بقايا ملابسه وهو يفعل الشيء نفسه بثوبها. سقطا على الأرضية الباردة وسط الغبار والرقائق الحجرية. دخلها دفعة واحدة عنيفة وهي على ظهرها، ساقاها مفتوحتان إلى أقصى حد، وهو يغرق فيها حتى النهاية من الضربة الأولى. صرخت بصوت عالٍ لم تحاول كتمه هذه المرة. راح يدفع بقوة وسرعة متوحشة كأنها فعلاً آخر مرة.

ـ انظر إليّ ـ طلبت بصوت مكسور وهي تمسك وجهه بكلتا يديها. ـ أريد أن أراك وأنت داخلـي... كل لحظة.

ظل ينظر في عينيها وهو يطرقها بعمق وقسوة. العرق سال من جبينه على نهديها، وهي كانت تبلل الأرض تحتها بغزارة مع كل دفعة. عندما بلغت الذروة الأولى عضّت كتفه حتى أدمت وهي تنقبض حوله بقوة تكاد

تؤلمه. استمر دون أن يتوقف، قلبها على بطنها ورفع وركيها عالياً ودخلها من الخلف بزاوية أعمق. أمسك شعرها وشدّه وهو يرتطم بها بقوة تجعل جسدها كله يهتز وصوت اللحم على اللحم يملأ القاعة المفتوحة.

ـ املأني... اترك شيئاً منك في داخلي... لو أخذوك غداً أريد أن أشعر بك أياماً ـ كانت تقول بين الصرخات والأنين.

أفرغ داخلها دفعة قوية أولى وهو يئن كالثور، ثم بقي يتحرك ببطء وهو لا يزال ينبض ويضخ المزيد. بعد دقائق قليلة قلبها من جديد وجعلها تجلس فوقه. هي ركبت بعنف وجوع، ترتفع وتنزل بقوة، يداها على صدره، وهي تنظر إليه طوال الوقت والدموع تختلط بعرقها. جعلته يبلغ ذروة ثانية داخلها وهي تهمس مراراً:

ـ أنا لك... حتى لو دُمرت الآلة... حتى لو جاءوا كلهم... أنا لك.

بعدها استلقيا على الجانب وهما ما زالا متصلين، هو يتحرك ببطء عميق جداً من الخلف وهي ترفع ساقها العليا لتسهيل دخوله. ظلا هكذا وقتاً طويلاً، حركات بطيئة يائسة مليئة بالقبل على الكتف والعنق والفم، كأنهما يحاولان أن يطبعا جسد كل منهما على الآخر إلى الأبد. في المرة الثالثة جعلها تجثو على أربعة وأخذها ببطء شديد أولاً ثم بعنف متصاعد حتى انفجرا معاً للمرة الأخيرة في صرخة واحدة طويلة مكتومة.

عندما انفصلا أخيراً كان جسداهما مغطى بالغبار والعرق والسوائل. هي استلقت على صدره وهو يمرر يده على شعرها القصير المبلل.

همست بصوت مبحوح تماماً:

ـ الساعة تقريباً انتهت. ماذا ستقول لهم؟

هو قبّل جبينها وقال بهدوء غريب بعد كل ذلك العنف:

ـ سأقول الحقيقة التي اخترتها. وأنتِ معي.

خارج القصر كانت المركبات الفضائية تنتظر تحت الشمس،

والساعة الرملية قد فرغت تقريباً،

أما هما فقد أعطيا بعضهما

كل ما يمكن أن يعطيه جسد لجسد

قبل أن يواجهها العالم الخارجي

بالعرض... أو بالتهديد.

الفصل الثاني والعشرون

الأزمة

بعد أقل من ساعة من انسحاب المركبات الفضائية إلى السفينة، وصلت الأخبار من المتحف.

شاب من الجماعة الفنية ركض حتى درجات القصر وهو يلهث، وجهه شاحب وعيناه واسعتان من الرعب.

ـ الآلة... ـ قال بصوت مكسور. ـ الشقوق صارت مرئية للعين. الضوء داخلها يومض بطريقة غريبة... وبعض الذين دخلوا هذا الصباح خرجوا يبكون من الألم بدل السعادة.

مورا شعرت بالطعنة في صدرها فوراً. أمسكت درابزين الحجر حتى لا تسقط. مختار سندها بذراعه، لكنه هو أيضاً كان شاحباً.

انتشر الخبر في المدينة كالنار في الهشيم.

خلال ساعتين انقسم السهل أمام القصر إلى معسكرين واضحين.

من جهة وقف معظم الشباب والفتيات الذين شاركوا في النهضة: النحاتون، الموسيقيون، عمال المصانع، الرياضيون، وطلاب الأكاديمية. كانوا يمسكون أدواتهم وآلاتهم الموسيقية ويرفعون رؤوسهم. أحدهم صاح:

ـ الآلة أعطتنا البداية... لكننا الآن نصنع سعادتنا بأيدينا. الفن، العلم، القوة... هذه هي حياتنا الجديدة!

من الجهة المقابلة تجمع كبار السن وكثير من سكان القرى القديمة والرافضين منذ البداية. كانوا يحملون مشاعل وأدوات زراعية، ووجوههم متجهمة. الرجل المسن الذي تكلم أول مرة منذ أسابيع رفع صوته هذه المرة بقوة:

ـ أنتم قتلتمها! فتحتم الباب للغريب فجرحتم قلب عالمنا. الآلة تموت الآن... وإذا ماتت نموت كلنا معها. يجب أن نوقف هذا الجنون فوراً... ونطرد من جاء بهذا البلاء!

اندلعت مشادات كلامية حادة. كاد الشبان يتقدمون، وكاد الشيوخ يرفعون أدواتهم. مورا نزلت الدرجات بسرعة ووقفت في المنتصف تماماً، مختار إلى جانبها.

رفعت يديها ونادت بصوت عالٍ يقطعه الألم الذي كانت تشعر به من الآلة البعيدة:

ـ انتظروا! الآلة تتألم نعم... لكنها لم تمت بعد. ما زال هناك وقت. لا تحولوا المدينة إلى ساحة حرب ونحن لم نكد نبدأ العيش!

صوتها أرعش بعض الواقفين، لكن الانقسام كان قد صار أعمق من أن يُرأب بكلمات. مشاعل الرافضين بقيت مشتعلة، وعيون المؤيدين بقيت متوهجة بالعناد والأمل الجديد.

في تلك اللحظة وصلت رسالة من السفينة عبر جهاز مختار المحمول. صوت القائد كان بارداً وقاطعاً:

ـ انتهى الوقت. القيادة العليا على الأرض أُبلغت. تعليمات جديدة: احتجاز رائد الفضاء مختار زكي فوراً، وتأمين المصدر المحتمل للمعرفة بالقوة إن لزم. مركبات الهبوط في الطريق خلال عشر دقائق.

مختار أطفأ الجهاز ونظر إلى مورا.

هي كانت تمسك صدرها من جديد، العرق البارد يلمع على جبينها من ألم الآلة المتزايد.

همست له وسط الضجيج المتصاعد حولهما:

ـ هي تنهار الآن... بسرعة. أشعر بكل شق يتسع.

هو أمسك وجهها بكلتا يديه ونظر في عينيها وسط الفوضى التي كانت على وشك الانفجار.

ـ إذن لم يعد لدينا إلا ساعات... أو أقل.

خلفهما كانت المشاعل تتحرك، والهتافات تعلو من الجانبين،

وفوق الأفق ظهرت أضواء مركبات الهبوط الثلاثة وهي تهبط من جديد نحو السهل،

بينما الآلة في المتحف البعيد

كانت تطلق آخر أنوارها المتقطعة

كقلب يحتضر.

الفصل الثالث والعشرون

ليلة القرار

مع هبوط الليل أغلق مختار ومورا على نفسيهما باب الجناح الغربي للقصر، المزلاج الثقيل، ثم الباب الثاني الداخلي.

خارج الجدران كانت المدينة تموج بالهتافات والمشاعل وأضواء المركبات الفضائية التي انتشرت في السهل. داخل الغرفة الكبيرة ذات الأعمدة لم يعد هناك إلا شمعتان وهي وهما.

مورا كانت ترتجف من ألم الآلة الذي صار مستمراً الآن، لكنها عندما نظرت إلى مختار امتلأ وجهها بتصميم يائس وواضح.

ـ الليلة لنا فقط ـ قالت وهي تخطو نحوه عارية بالفعل. ـ غداً قد لا يبقى شيء. أريدك الليلة كلها... بكل طريقة... حتى لا يبقى جزء مني لم تلمسه أو تملأه.

قبلها بعنف ورفعها. لفّت ساقيها حول خصره وهو يدخلها واقفين دفعة واحدة. صرخت في فمه من الشدة. راح يدفعها نحو العمود الرخامي وظهرها يرتطم بالحجر البارد مع كل دفعة عميقة. كانت تتكلم مباشرة في فمه بين القبلات الوحشية:

ـ نعم... احفر داخلي... اجعلني أشعر بك فقط... امحُ ألم الآلة بزبّك... املأني حتى الثمالة...

أنزلها بعد أن بلغت ذروة أولى سريعة وعنيفة، ثم ألقاهما على الفراش الواسع. فتح فخذيها على أوسع ما يمكن ودفن وجهه بين ساقيها. لحسها ببطء أولاً ثم بسرعة وجوع، لسانه يدخلها وأصابعه تفركها حتى بللت وجهه تماماً وصرخت ذروة ثانية وهي تشد شعره. قبل أن تهدأ ارتفع ودخلها دفعة واحدة حتى ارتطمت بطنها ببطنه. رفع ساقيها ووضعها على كتفيه وراح يضرب بعمق وقسوة منتظمة.

ـ أحبك ـ قال وهو ينظر في عينيها المبللتين. ـ أحبك أكثر من أي سعادة عرفتها داخل تلك الآلة أو خارجها.

هي كانت تبكي وتضحك وتئن في الوقت نفسه:

ـ وأنا... أحبك حتى لو دُمر كل شيء... خذني... استخدم كل فتحة في جسدي الليلة... اجعلني أتذكرك طوال ما تبقى من عمري...

قلبها على بطنها ورفع وركيها عالياً ودخلها من الخلف بزاوية جعلتها تصرخ بصوت أعلى. أمسك شعرها وشدّ رأسها إلى الخلف وهو يرتطم بها بقوة تجعل الفراش يتحرك والصوت الرطب الفاحش يملأ الغرفة. كانت تقول له بصوت مبحوح مكسور كلمات لم تعد تخجل منها:

ـ دقّني أقوى... املأ رحمي بمنيّك... أريد أن يسيل مني أياماً... أنا كسّك الليلة... أنا فتحة سعادتك فقط...

أفرغ داخلها دفعة قوية وهو يئن كمن ينزف، ثم بقي يتحرك ببطء وهو ما زال ينبض ويضخ. بعد دقائق قليلة سحب نفسه منها وهي تئن من الفراغ، جعلها تجثو على أربع وأدخل إصبعه أولاً في فتحة مؤخرتها ببطء ورفق مع لعابه، ثم رأس عضوه. دخل سنتيمتراً بعد سنتيمتر وهي تتنهد وترتجف وتطلب منه ألا يتوقف. عندما غاب فيها بالكامل تقريباً بدأ يتحرك ببطء عميق جداً، يداه تمسكان وركيها. هي كانت تئن بصوت مختلف هذه المرة، مزيج من الألم واللذة الشديدة، وتقول له:

ـ نعم... خذ هذه أيضاً... كل جسدي لك... املأني من الخلف أيضاً... أريد أن أشعر بك في كل مكان...

ظل هكذا طويلاً حتى انفجر مرة ثانية في أعماق مؤخرتها بدفعات ساخنة متتالية. سحب نفسه بعد أن انتهى وسال منيّه من فتحتيها معاً على الفراش. هي انقلبت على ظهرها فوراً وفتح فخذيها بيديها.

ـ بعد... في فمي... أريد أن أتذوقنا معاً.

جعلته يركب صدرها ويقرب عضوه اللزج من فمها. ابتلعته بعمق وهي تنظر إليه، تلعق وتنظف وتبتلع كل ما تبقى منهما مختلطاً. عندما صار صلباً من جديد رفعها وأجلسها فوقه. ركبت ببطء أولاً ثم بعنف متزايد، نهداها يرقصان أمام وجهه وهو يمصهما ويعضهما برفق. ظلت تتحرك عليه ساعة تقريباً، تبلغ ذروة ثالثة ورابعة وهي تشد عليه من الداخل كالمخالب، وهو يفرغ فيها للمرة الثالثة وهو يمسك وركيها بقوة ويرفعها وينزلها كأنها لا تزن شيئاً.

في الساعات الأخيرة من الليل صارا أبطأ لكن أعمق. استلقيا على الجانب متعانقين وجهاً لوجه وهو يدخلها ببطء شديد ويبقى في الأعماق وقتاً طويلاً مع كل دفعة. كانا يتكلمان همساً بين القبل والأنين:

ـ إذا اختفت الآلة غداً... ـ قالت هي.

ـ نبقى نحن ـ أجاب. ـ النهضة تبقى. الفن والعلم والموسيقى تبقى. وأنا أبقى معك إن استطعت... أو أحملك معي إن لم أستطع.

ـ وأنا أختار معك ـ همست وهي تضيق عليه من الداخل. ـ حتى لو مت الألم... أختار هذه السعادة التي بين ساقيّ الآن.

ظلا يتبادلان الجسد حتى اقترب الفجر. في المرة الأخيرة جعلها تجلس فوقه من الخلف، ظهرها إلى صدره، وهو يرفعها وينزلها ببطء عميق جداً بينما يده تفركها من الأمام. انتهيا معاً في صمت تقريباً هذه المرة، فقط أنفاس طويلة مرتجفة ودموع هادئة.

عندما سقطت فوقه منهكة تماماً، وهو ما زال مدفوناً فيها وينبض بضعف، همست في أذنه وهي تحدق في الضوء الرمادي الذي بدأ يتسلل من النوافذ:

ـ قررنا إذن... نترك الآلة تأخذ مسارها. لا نوقف النهضة. ولا نسلم المصدر. نواجههم معاً بما نحن عليه الآن.

هو ضمها بكل ما تبقى من قوته وأجاب بصوت مبحوح:

ـ معاً.

خارج القصر كانت المشاعل لا تزال مشتعلة،

وأضواء السفينة تنتظر الفجر،

والآلة في المتحف البعيد تطلق آخر نبضاتها المتقطعة،

أما هما فقد اتخذا القرار

وهم ما زالا جسداً واحداً مبللاً ومرهقاً

في ليلة لن تتكرر.

الفصل الرابع والعشرون

النهاية

مع أول ضوء حقيقي للفجر فتحا الباب.

مورا كانت ترتدي ثوباً بسيطاً نظيفاً هذه المرة، ومختار عاد إلى زيه الفضائي لكن دون الخوذة. يدا هما متشابكتان بشدة وهما ينزلان درجات القصر العريضة نحو السهل الذي كان يغلي بالفعل.

المركبات الفضائية الثلاثة كانت مصطفة في نصف دائرة. القائد والضابطون يقفون أمامها، الأسلحة الصاعقة ظاهرة لكن غير مصوبة بعد. على الجانب الآخر كان معسكر النهضة (الشباب والفنانون والعمال) يقف متماسكاً، وعلى الجانب الأبعد معسكر الرافضين بالمشاعل التي لم تنطفئ طوال الليل.

مختار رفع صوته حتى يسمعه الجميع، جهاز الترجمة الآلي ينقل كلماته إلى لغة الكوكب في الوقت نفسه:

ـ لن أسلم مصدر المعرفة. النهضة التي ترونها أمامكم ليست سلاحاً ولا تهديداً... هي ولادة جديدة. الآلة التي كانت تمنحكم السعادة المؤقتة تموت الآن بسببنا نحن الاثنين. لكن ما ولد منها... الفن، العلم، الموسيقى، النظام، القوة... هذا سيبقى. وسنحميه.

القائد خطا خطوة إلى الأمام، وجهه متجهم.

ـ هذا عصيان مباشر يا رائد زكي. آخر فرصة: حدد موقع المصدر ودلّنا عليه، أو نعتبرك خائناً ونتعامل مع الحضارة بالقوة اللازمة.

مورا تقدمت نصف خطوة أمام مختار ورفعت رأسها. صوتها كان هادئاً لكنه وصل إلى أبعد واقف في السهل:

ـ المصدر يحتضر الآن في المتحف الفضائي. من أراد أن يراه قبل أن يختفي فليأتِ. لكن لن نسمح لأحد أن يلمسه أو ينقله أو يستغله. نحن من فتح الباب... ونحن من سيغلقه إن لزم.

في تلك اللحظة وصل رسول راكضاً من جهة المتحف، وجهه أبيض من الرعب:

ـ الضوء... اختفى تماماً! القبة الذهبية تتشقق... والآلة تطلق صوتاً كأنها تئن!

صراخ علا من معسكر الرافضين. بعضهم ركض نحو المتحف، وبعضهم سقط على ركبتيه. من معسكر النهضة علا هتاف واحد متماسك كأنه قرار جماعي.

مختار نظر إلى مورا. هي نظرت إليه وأومأت مرة واحدة فقط.

سارا معاً وسط الفوضى نحو المتحف، يتبعهما بعض الشباب المخلصين. القائد أمر رجاله بالتقدم لكن بحذر. عندما وصلوا إلى مدخل المتحف كانت القبة الذهبية في الطابق الأخير تتشقق فعلاً أمام أعينهم. ضوء أخير أزرق-أبيض يومض بعنف من الداخل ثم يخفت.

مورا أمسكت يد مختار بقوة وأدخلته معها عبر القبة المتصدعة للمرة الأخيرة.

في الداخل لم يعد هناك عالم مضيء راقص. كان هناك فراغ هائل يتقلص، وموسيقى مكسورة تبتعد كصدى، وشعور بالسقوط البطيء. لكن للحظة قصيرة واحدة فقط عاد الدفء القديم. جسدا هما تلامسا في ذلك الضوء الأخير المحتضر، وشعرا بسعادة خاطفة حادة كالألم. قبلها مختار قبلة طويلة عميقة وسط الانهيار، وهي لفّت ذراعيها حوله كأنهما يودعان شيئاً أكبر منهما معاً.

ثم انطفأ كل شيء.

خرجا إلى الرواق الحجري العادي. خلفهما كانت القبة تتهاوى بهدوء غريب، والغبار الذهبي يتساقط كالمطر الناعم. الآلة... ماتت.

في السهل كان الصمت قد سقط فجأة على الجميع.

القائد نظر إلى مختار نظرة طويلة معقدة، ثم أصدر أمراً هادئاً لرجاله بالانسحاب المؤقت إلى المركبات. معسكر الرافضين تفرق في ذهول وحزن. معسكر النهضة بقي واقفاً، بعضهم يبكي، وبعضهم يرفع رأسه نحو القصر والتماثيل والمصانع كمن يتمسك بما بقي.

مورا أسندت رأسها إلى كتف مختار وهما يقفان على عتبة المتحف. صوتها كان خافتاً جداً ومتعباً وهادئاً في الوقت نفسه:

ـ انتهت.

لكننا... ما زلنا هنا.

هو قبّل شعرها وقال:

ـ نعم. النهضة بدأت. والباقي... سنكتبه معاً.

فوقهما كانت السماء الصباحية صافية وباردة،

وخلفهما كان غبار الآلة الذهبية يستقر ببطء على أرضية المتحف إلى الأبد،

وأمامهما كانت المدينة الجديدة

بمداخنها وتماثيلها وموسيقاها

تنتظر اليوم الأول

بدون سعادة مستعارة.